الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

إبراهيم نصر الله

شرفة الفردوس

رواية

فريق
متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

شرفة الفردوس

(رواية)

إبراهيم نصر الله

عن الكتاب..

في مدى رحب متعدد الدلالات، تتحرك شخصيات رواية إبراهيم نصر الله "شرفة الفردوس" لتشكل هذه الرواية إضافة ومذاقًا مختلفين في سلسلة مشروعه الروائي "الشرفات".

وإذا كان التطور وارتياد مناطق جديدة في الفن وفي الروح الإنسانية وفي ما يؤرقنا من أسئلة كبرى، هي جوهر الكتابة وشاغلها، فإن هذه الرواية النوعية تحقق ذلك بالكثافة والبصيرة في آن.

طبقات كثيرة تجعل من تعدد قراءات هذه الشرفة مساحة واسعة لقارئ نوعي كي يُطل على العالم وعلى نفسه من خلال الصراع الذي تخوضه شخصيات هذا العمل، القليلة، لكي تحقق وجودها ومعنى هذا الوجود داخل النص وخارجه أيضًا! لأن كل عمل يساعدنا على اكتشاف أنفسنا سيساعدنا على اكتشاف العالم أيضًا.

لقد أحدثت كل رواية من روايات نصر الله صدى واسعًا في نفوس النقاد والقراء والدارسين الأكاديميين. وتأتي هذه الرواية لتؤكد القدرة الخلاقة على تقديم اقتراحات فنية وفكرية وجمالية عميقة، وعلى ارتياد آفاق أبعد في كل مرة يقدم فيها واحدًا من أعماله الجديدة.

رواية عن السلطة.. الخنوع والتمرد...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وما نحن إلا أناسٌ لا مرايا لهم،
رسَموا لنا صُوَرنا فصدّقناها!

المراودة

أنت لا تستطيع اقتلاع عبير وردة

حتى لو سحقتها بقدميك!

طاغور

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1

آخر شيء كان يمكن أن تفكر فيه واحدة مثلي، هو أن تستأجر شقّة في بناية قيد الإنشاء؛ والأغرب من هذا أن تستأجر شقّة!

دون أن أدري وجدت نفسي، في مطلع ذلك الأسبوع، أُوقِف السيارة وأترجّل منها. شيء ما، رغما عنّي، قادني إلى هناك، وحين رفعتُ بصري إلى الأعلى، نحو الطابق الأخير، أدركتُ أنه مكاني، حتى قبل أن أصعد إليه وأرى العالم كلّه دفعة واحدة!

اقترب مني رجل مُلتح، حدّق في وجهي بذهول أربكني:

- أنتِ لم تتغيّري، بل أصبحتِ أجمل بكثير من السابق!

- ماذا؟

- هل تعرفني؟!

- عفوًا، أعذريني، صدّقيني، لا أعرف كيف قلت ما قلته! أنا وكيل صاحب البناية، ومحاميه أيضًا.

- أهلا! لم أعرف اسمكَ.

- أنا إدريس.

- وأنا حياة.

- حياة، طبعًا أعرفكِ؟!

- وبعدين؟! ماذا تقصد؟!

- أقصد أنني أعرف الحياة، وأنت بحاجة لشقّة ترتاحين فيها. وسألني إن كنتُ أبحث عن شقّة للشراء أم للاستئجار.

تردّدت قليلا، قلت: للاستئجار، وأريد تلك الشقّة، في الطابق الأخير.

- الطابق الأخير كبير عليك!

.. وحيرني كيف استطاع أن يعرف أنني سأكون وحدي في ذلك الطابق.

- يمكن أن تستأجري شقة أخرى، لكن تلك، هذا أمرٌ صعب. ثم إنها لصاحب البناية.

كنتُ على وشك المغادرة. حين رأيته يقف حائرًا وهو ينظر نحوي، كما لو أنه يريد أن يقول شيئًا غير متأكِّد منه.

- هل يمكنك العودة غدًا لأعطيك الجواب النهائيّ؟

- في أي ساعة؟

- في أي ساعة تريدين. أنا دائما هنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجدته في انتظاري حين عدتُ، وقبل أن يتكلّم أدركتُ أن الأمر حُسِم لصالحي.

- كنتُ أخشى ألّا تعودي. قال لي.

- لم يكن باستطاعتي سوى أن أعود!

- يبدو أن الطابق الأخير من نصيبكِ.

- وصاحب البناية؟!

- صاحب البناية لا يريدُ أن يَبقى الطابقُ خاويًا، يريد بعض الحياة فيه.

- لم أتوقع هذا؟

- لا أحد منّا يستطيع أن يتوقّع ما يدور في رأس السيد قاسم، إنه يفاجئنا دائما بما لا نتوقّعه! وأصارحك، آخر شيء فكرتُ فيه هو أن تأتي امرأة وحيدة وتسكن هنا. وصمت قليلا؛ أحب أن أسألك سؤالا: هل أنت متأكدة من أنك تريدين ذلك الطابق؟!

- لست متأكدة من شيء أكثر من هذا.

- حتى قبل أن تصعدي إليه؟!

- أوَلم أصعد إليه؟!

- لست متأكدًا! ولكن، ما دمتِ اخترته، فلن يكون إلّا ما تريدين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سار أمامي منحِّيًا كلَّ ما يمكن أن يعترض طريقي. وبدأنا نصعد. كل طابق كان يضمُّ شقّتين متقابلتين. وصلنا لاهثَين؛ وفهمت ملاحظته التي قالها لي من قبل. كان الطابق الأخير شقة واحدة، شبه ملعب! لكن الشيء الغريب أنني لم أشعر بأنها كبيرة أكثر مما ينبغي! نظرتُ إليه وهو يحاول التقاط أنفاسه، مثلي، بصعوبة. قال لي: اطمئني، سيكون هنالك مصعدٌ يُريحك من كلِّ هذه الأدراج!

كنت قد لاحظتُ غرفة المصعد، في كلّ بسطة درج وصلناها، ولم أر في ملاحظته عن المصعد إلّا محاولة لقول شيء، أيّ شيء، وقد وجد نفسه وحيدًا معي في الأعلى!

درتُ حول نفسي كما لو أنني أرقص، وأنا أتأمل الجهات الأربع؛ درتُ مرات كثيرة، وحين انتبهت لوجوده، كان يغضُّ الطرْف مُحدِّقا في الأرض. انتبهتُ لما أفعله، لكنني لم أكن أشعر بأيّ حرج! كنت كعروس وجدت نفسها في بيتها الحلم. وفوجئتُ بإحساسي هذا. تساءلت: عروس؟! ومن أين جاءني مثل هذا الإحساس؟! أنا التي لا رجل في حياتها!

- هل أعجبتكِ؟

ترجمتُ فرحي مباشرة غير عابئة بشيء، كأنَّ شخصًا آخر سيدفع إيجار تلك الشقة الفسيحة، ولستُ أنا:

- أعجبتـني، أعجبتني كثيرًا.

لم أدرِ لمَ لمْ أُخفِ إعجابي بها، فهذه الحماسة ستجعله يرفع قيمة الإيجار بالتأكيد.

وكما لو أنه قرأ ما في رأسي، قال لي: سنتحدّث في قيمة الإيجار فيما بعد!

- أحبُّ أن أتحدّث فيها الآن. كم تُريد؟

- لنقل ثلاثة آلاف دينار. ما رأيكِ؟

كان المبلغ أقلّ بكثير مما توقّعتُ، لكنني قلت له: سأدفع ألفين!

- اتفقنا! مبروك! واستدار هابطًا الدَّرجات، كما لو أنه لا يريد أن يرى اتساع عينيَّ أمام المفاجأة.

- والعَقْد؟ أليس علينا أن نوقّع العقد؟!

- اتفاقنا أكبر من كلّ العقود. قال لي وهو يختفي هابطًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فتشتُ عنه عند خروجي،

لم أعثر له على أثر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

2

إلى مقرِّ عملي، إلى مكتب مبيعات تذاكر السفر التابع لإحدى شركات الطيران الشهيرة توجّهتُ صبيحة اليوم التالي. فرحٌ، ما، يملأني. لاحظتْ دُنْيا، زميلتي، ذلك، فغمزتْني، وهمستْ: هناك سرّ!

- لا أسرار، كل ما في الأمر أنني استأجرت شقة، الشّقة الحلم!

لم تُبْدِ دُنْيا استغرابًا، لكنها لم تنس أن تبارك لي: مبروك. وعادت إلى عملها بابتسامة أضيق وحماسة أقلّ!

عند انتهاء الدّوام، قلت لها: أحبّ أن أُريك إياها.

اعتذرتْ، ويمكنني القول: تهرَّبتْ.

- في وقت لاحق، ليس اليوم. في وقت لاحق!

ورأيتها تبتعد بسرعة كما لو أنها تخشى أن أُصرَّ على طلبي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ذلك المساء، وعلى مدى خمسة أيام، وجدتُ نفسي أدور حول تلك البناية، عابرة الطّرق الترابية المحيطة بها، دون أن يخطر ببالي أن عمارة كهذه يلزمها الكثير من الخدمات، وبالتالي الوقت، قبل أن تُسكَن.

ظنّي، لم يكن في مكانه، إذ بتسارع غريب، تمَّ كلُّ شيء؛ فحين ذهبت صباح يوم جمعة وجدتُ الشارع قد عُبِّد، ووجدتُ أنه شارع بنهاية مغلقة. فكّرت في الأمر كثيرًا، إذ إنني كنتُ مساء اليوم السابق هناك، دون أن يكون للشارع وجود. خطرتْ لي فكرة جعلتني أضحك، وهي أن الشارع أُحضِر جاهزًا، وكل ما في الأمر أنهم قاموا بإلصاقه بالأرض!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أوقفتُ السيارة، غير مصدِّقة عينيّ. لاحظتُ وجود سيارة بيضاء فارهة متوقّفة أمام البناية. حاولتُ رؤية من في داخلها، لم أستطع. كان زجاجها الأسود يحجب ما وراءه.

بتردُّد سرتُ نحو بوابة البناية، دون أن أتوقّف عن النَّظر صوب السيارة، وبمجرد أن عبرتُ العتبة، لاحظتُ حجم التغيير الذي حدث! فالرّخام احتلّ مكان الأرضيات والأدراج الأسمنتية، كما أن جانبيّ الدَّرج قد تمَّ طلاؤهما بلون عاجي أحّاذ، في حين تمَّ دهن الدرابزين بلون بحري عميق.

كما اشتهي وأتمنى!

ألقيتُ نظرة على أول شقة صادفتني، أدركتُ أنها شبه مكتملة، باستثناء الشبابيك والأبواب. واصلتُ صعودي إلى الأعلى حتى وصلتُ إلى شقّتي!

اتكأتُ على حافة أحد شبابيكها الكبيرة. تأملتُ العالم، أسعدني اتساعه. انتقلتُ إلى شبّاك في الجهة المقابلة، كان الإحساس نفسه.

هاجس ما دفعني للذّهاب نحو الشرفة الواسعة، التي يمكن أن أرى منها شارع البناية ذي النهاية المغلقة، نظرتُ، لم تكن السيارة البيضاء في الأسفل. اختفتْ، وعجبتُ كيف أنني لم أتمكن من سماع صوت محرّكها.

قلتُ: لعلَّ ذلك بسبب ارتفاع البناية.

سرتُ نحو الشرفة المقابلة، وأنا لم أزل أفكِّر في اختفاء السيارة السريع، كما يختفي شبح!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- صاحب البناية سعيد لأنك أحببتِ الشّقة. جاء صوتُ إدريس من خلفي. لم أعرف من أين خرج!

أخفيتُ فزعي بكلمة: شكرًا. فقال: قد تستغربين! لقد قال لي: كنتُ أعتقد أن تلك الشقة العالية كاملة، لكن ذلك لم يكن صحيحًا!

لم أجد الكلمات التي يمكن أن أُعلّق بها على كلامه. فقلتُ: شكرًا.

- ربما سأفاجئك إذا قلت لكِ إنه لم يفكر أبدًا في تأجيرها، أو بيعها. لكن أمرًا ما، لا أفهمه، جعله يغيّر رأيه!

- حُسْنُ حظي ربما!

- حُسْنُ حظك بالتأكيد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

بعد أيام من انتقالي لتلك الشقّة، حدث ذلك الأمر الذي كان بداية احتلال الفوضى لحياتي:

في ذلك الثلاثاء، وقف شاب أمام الواجهة الزجاجية للمكتب. في البداية، اعتقدنا أنه يتأمّل مجسَّم الطائرة الجديدة التي أضيفتْ إلى أسطول شركتنا حديثًا، وبعد دقيقتين أدركْنا أنه ينظر إلى الدّاخل، وصوبي بالذات. دُنْيا لاحظتْ ذلك، ورأيتُ نفسي أميل نحوها وأوشوشها: لو عبر ذلك الشاب عتبة مكتبنا، سأكون أسعد إنسانة في الوجود!

تلفّتتْ دُنْيا حولها بخوف، بحيث أحسستُ بتلك الحبوب الصغيرة التي تغطي وجهها، تخترق طبقة المكياج السميكة وتكبر فجأة، وذلك الشعر الناعم الذي يغطي صدغيها يقف. قالت لي: لا تُعيدي مثل هذه الجملة، فالأمور غير مخطط لها لأن تسير في هذا الاتجاه!

لكن اللحظات كانت تمرُّ بسرعة. لم يكن يلزمه، كما تبين لي، أكثر من ابتسامة تشجيع، وقد منحتُه إياها!

رأيته يتّجه نحو الباب، يُشْرعه، دون أن يرفع نظره عني. اقترب من مكتبي، ودون مقدِّمات قال بصورة فاجأت الجميع: اسمي أنَس، إذا لم يكن في حياتك أحد، فسأكون سعيدًا أن أكون ذلك الإنسان!

فجأة صرختْ دُنْيا بلا مقدمات: لا!

فوجِئْنا بصرختها، وتبادلنا نظرات باحثة عن معنى للفزع الذي دبَّ في أوصالها فجأة.

سألتها: ماذا حدث؟!

- قدَمي ارتطمت بالطاولة! أجابت، دون أن تكفَّ عن النظر حولها.

تذكرتُ أنه لم يزل أمامي.

شباب هذه الأيام مختلفون، كنت أعرف هذا.

لم يبدُ لي شخصًا طائشًا.

كان وسيمًا، له غمّازتان رائعتان، وابتسامة مشرقة وأسنان بيضاء مثل أسنان فتى إفريقي.

التفتُّ إلى دُنْيا، وجدتها تتحسس وجهها برعب، ثم تنهض راكضة نحو الحمّام!

- سأعود غدًا. قال لي.

ومنذ تلك اللحظة بدأ انتظاري له.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتظرت عودة دُنْيا من الحمام، لكن ذلك لم يحدث، نهضتُ، وطرقتُ بابه.

- دُنْيا.. دُنْيا!

لم تجُب.

طرقتُ الباب بقوة، وقبل أن تسقط قبضتي للمرة العاشرة عليه، فُتِحَ الباب. كان منظرها مخيفًا، فطبقة المكياج التي وضعتْها على وجهها كيفما اتفق، حوّلتها إلى كائن مُرعب، بحيث لم أستطع منع نفسي من التراجع خطوتين.

سارت نحو مكتبها، تناولت حقيبتها، وخرجتْ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين عاد أنَس، وقبل أن يدفع الباب ويدخل، تناولتُ حقيبة يدي ونهضتُ. لمحتُ ذلك الخوف الغريب في عيني دُنْيا، دُنْيا التي لم تفسِّر لي شيئا مما حدث لها يوم أمس. سرتُ نحوها، وشددتُ على يدها؛ كانت باردة كقطعة ثلج، وفوجئتُ بها تمسح دمعة كبيرة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

هكذا أُتيحتْ لي فرصة كاملة كي ألتقي بمن أُحبّ، موظف يعمل في بنك كبير تجاوز الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالعالم دون خسائر تُذْكَر.

لم نعد نفترق. كنت سعيدة كما لو أنني أشهد لحظة ميلادي، وذلك الضوء الفاتن، الأول، الذي غمر العالم.

قلت له: سآخذك لترى أين سنسكن!

لم يعترض، قال لي: فورًا.

كان طوال الطريق يتأمّلني بشغف، حتى أنني رجوته: إذا ما واصلتَ النظر إليّ هكذا، سأصطدم بشاحنة أو جدار.

- كل شيء معك سيكون جميلا، إلّا هذا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

راقبته وهو يدور حول نفسه في ذلك الطابق، يدور كما لو أنه يرقص! مثلما فعلت تمامًا في ذلك اليوم الذي صعدتُ فيه إلى هناك للمرّة الأولى. وفي غمرة نشوته بالمكان وامتدادات العالم حوله، اقترب مني واحتضنني بحنان.

ألقيتُ برأسي على كتفه الأيمن. تمنيتُ أن يرفع وجهي إليه ويقبِّلني. لم يفعل! وما هي إلّا لحظات، حتى سمعتُ الجرس يُقرع، نظرتُ إلى أَنَس مستفسرة بعينين قلقتين، عن ذلك الذي يمكن أن يقرع جرس بابي، فأشار إليّ أن أذهب وأعرف.

فتحتُ الباب، وإذا بإدريس أمامي، ينظر إليّ بغضب، ويوشك أن يتحوّل سؤاله إلى صرخة: ما الذي تفعلانه هنا؟!

قلت له: ما الذي نفعله؟ أنا مع خطيبي!

- لا، ليس خطيبك!

- وما أدراك أنه ليس خطيبي؟!

- لأنه ليس خطيبك.

حدَّق بي إدريس وهو على وشك البكاء، وقد انقلبتْ ملامحه تمامًا، ثم قال: أرجو ألّا تكوني قد أفسدتِ الأمر كلَّه. أرجو ذلك!

واندفع هابطا الدّرجات بسرعة لم أكن أتخيل أن رجلا بنصف عمره قادر عليها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين عدتُ من عملي مساء اليوم التالي، وجدتُ إدريس ينتظرني أمام باب البناية؛ وقبل أن أسمع تلك الجملة منه، كنت قد سمعتُها بطريقة ما، بحدْسي: يؤسفني أن أقول لكِ، إنكِ خسرتِ ذلك الطابق. يؤسفني أن أقول هذا!

- لم يحدث شيء يجعلني أخسره، كلّ ما حدث أنني زُرته مع خطيبي.

- أرجوكِ، لا تُفسدي الأمر أكثر من ذلك، أنتِ لن تستطيعي تصوّر أثر ما فعلتِ!

- أثره على مَنْ؟!

- على المُعلم؟!

- تقصد الذي بنى البناية؟ أم صاحبها؟!

- الأمر نفسه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشيء الوحيد الذي لم أكن أتوقّعه، هو أن يعرض عليَّ شقة أخرى. قال بأسى: الذي حدث لم يكن سهلًا عليه، ولكنه وافق على أن يؤجّرك شقة أخرى.

قلت: لا أريد سوى تلك الشقّة.

فردّ: بل ستقبلين بالشقة الموجودة في الطابق الثاني، وسننقل أغراضك اليوم قبل الغد!

- موافقة. قلتُ له، كما لو أن الكلام مُلصق بلساني!

- كما توقعتُ! مبروك.

لم أعد مطمئنة، فسألته: وكم عليَّ أن أدفع إيجارًا؟!

- هل تريدين التفاوض هنا؟!

- أجل!

- هل نقول ألفي دينار في السنة؟

- لقد قبلتم أن تؤجروني الكبيرة التي هناك بألفين! ألف. قلت.

- بشرط واحد. أن لا تخبري أحدًا من سكان البناية، بهذا الاتفاق، حين يصِلون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أن وقّعنا العقد قال لي: لو قلتِ دينارًا لوافقتُ. وحين سألته: لماذا؟!

ردّ: المعلَم لا يحب الفراغ، لا يحبه بتاتًا، وكانت الشقة التي ستنتقلين إليها، هي الأخيرة التي لم تؤجّر حتى الآن، ولم يكن يريد في أيّ يوم بناية تصفر الرّيح في إحدى شققها، كما يقال.

- غريب!

- ما الغريب في الأمر؟!

- أنا لا أحب الفراغ أيضًا، ولكن لسبب آخر ربما.

وحيّرني أنني أواصل الحديث معه، أنا التي تريد أن تتوقّف! أن تُغلق فمها! لكنني سألته: وهل تعتقد أن الصمت فراغٌ أيضًا؟! أعني أن المكان الذي لا أصوات فيه، رغم وجود حياة فيه، هو مكان فارغ أيضًا!

- بالتأكيد.

- وهل هذا رأيكَ أم رأيه، أعني المعلِّم!

- بالتأكيد رأيه. وإلّا لما أجبتكِ بهذه الثقة!

فقلت له: هناك شيء يدفعني بقوة لأن أصمت.

وكم هالني أنه قال لي: لن تستطيعي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمام البناية أرسلتُ نظرة إلى ذلك الحلم العالي، الحلم الذي أفلتَ من بين يدَيَّ بعد أن أمسكتُ به؛ كنت على وشك البكاء، ولأول مرة ألحظ أنهم ثبّتوا اسم البناية، اسم جميل كُتِبَ بحروف ذهبية كبيرة: (بناية الفردوس).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تلك الليلة، وجدتُ نفسي في الشقة الجديدة، شقة يمكن أن يعيش فيها إنسان، أجل، إذا ما استطاع أن ينسى أنها شقة بلا شرفات، وشبابيكها عمياء، مجرد رسْم على الحائط لا غير، بلا امتداد، والليل وحده هناك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5

في اليوم التالي لوجودي في الشقة، وجدتُ رسالة مكتوبة بخط أنيق، قد دُفِعَتْ من تحت بابي، وفيها جملة واحدة فقط: تذكَّري. لم توجدي لسواي!

أخافني الأمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

زوجة حارس البناية، اقتربت مني لتساعدني حين رأتني أترجل من السيارة حاملة بعض الحاجيات. وكما لو أنها تعرف القصة كلَّها قالت بلهجة عتاب: يا مدام، كيف خسرتِ تلك الشقة؟!

هززتُ رأسي بأسى وطلبتُ منها ألّا تفتح هذا الجرح مرّة أخرى.

- لا تحزني يا مدام، إنها في النهاية شقّته، وهو صاحب البناية!

- هل هو متزوج؟ سألتها.

- لا نعرف أكثر من أنه رجل وحيد يا مدام، لا ولد ولا سند!

- ستسنده البناية. علَّقتُ لفرْط غضبي. وسألتها: هل سبق وأن رأيته؟!

- رأيته مرّة واحدة، من بعيد، وكان يرتدي الأبيض. أجابت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنَس، الذي كان على وشك أن يكون خطيبي وزوجي، لم يعنِه الأمر، قال لي، حين رحتُ أشكو له: أي مكان يجمعنا، تأكدي أنه سيكون الجنة!

وخيِّل إليَّ أن تلك الجملة قالها آدم لحواء، أو قالتها له، حينما وجدا نفسيهما خارج بيتهما الأول؛ وهكذا لم يزل آدم يردّدها ولم تزل حواء تُغنيها منذ ذلك اليوم!

كل الكلام الجميل الذي قاله أنَس بعد ذلك، لم يستطع التّخفيف من مدى حِنقي على مالك البناية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الأيام التالية، كنت أتلفّت حولي باحثة عن محطم الأحلام ذاك. لسبب ما، كنت أريد أن أراه بشكل أوضح، ولأعرف ربما، بحسِّ الأنثى، إن كان هو كاتب الرسالة أم لا. بالطبع، لم يكن باستطاعتي أن أواجهه بشيء، كما لم يكن باستطاعتي مناقشته في مسألة استئجار الشقة، فهذا أمر خارج حقوقي، حتى أنني لا أملك سطرًا واحدًا يدل على أن هناك اتّفاقا بيننا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذات ليلة وجدت نفسي في حوار عنيف معه، في الطابق الأخير، وفي شقته، حوار - شجار من تلك الحوارات التي يمكن أن تنتهي بجريمة قتل. قلت له: إنك أناني، وإن هذه الشقة من حقّي، وقلت له: لقد تعبتُ من شقّتي ومن هوائها الثقيل اللّزج؛ هذه الشقة التي بتّ أحسّها كالعالم السفليّ في الأساطير، معتمة وموحشة ولا تليق بعروسين سيبدآن حياتهما بعد أسابيع. ظلَّ صامتًا، وقبل أن أخرج قال لي: لا تَنْسي أن هذه الشقّة لي، وبعض الأشياء من الصعب أن تتمّ حسب رغباتك، ثم إن وجودك في الأسفل مشكلتكِ الخاصة، وليست مشكلتي.

استدرتُ وقلت له: لا، بل أنت المسؤول عن إلقائي خارج هذه الشقّة.

فقال: كان عليك أن لا تنْسي بأنك لم توجدي لسواي. وأغلق الباب بقوة، وعند تلك اللحظة استيقظت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6

خيّرني أنَس بين أن يتقدَّم لخطبتي الآن، وفورًا، أو يترك الأمر حتى يعود من سفره القصير إلى السعودية، قلت له: حين تعود سيكون ذلك أفضل.

قال: أعتذر لك لأنني كنتُ السبب في خسارتك لتلك الشقّة. وسألني: أرجو أن تكوني مرتاحة في الشقة الجديدة؟ .فقلت له: لا أفكّر بشيء مثلما أفكّر في الطابق الأخير، الذي فقدته! وحدَّثته عن إحساسي بالشقة التي أنا فيها؛ فوعدني، للمرة العشرين، أن يحوّلها إلى جنة. لكن عينَيَّ ظلّتا مُعلّقتين هناك في الأعلى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذات صباح اقتربت مني زوجة حارس البناية وأسرَّت إليَّ بخوف: سيأتي صاحب البناية ويسكن هنا يا مدام! إنه لا يتوقّف عن إحضار أغراضه إلى البيت؛ أحضر نباتات كثيرة في أحواض، كما أحضر بعض الحيوانات أيضًا، ومن بينها طيور، وقطة وكلب، وأفعى كبيرة، لكني بدأت أشكّ في كلامها، حين قالت لي: إنها قد تكون رأت زرافة صغيرة!

- زرافة صغيرة؟!

- والله كأنني رأيت زرافة صغيرة يا مدام!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7

استسلمتُ لخسارتي الكاملة للشّقة، دون أن أستطيع نسيانها، أو منع نفسي من التفكير فيها بين حين وآخر، بعد أن أحسستُ أن خسارتها، مع وجود أنس، لم تعد تُطبِق على صدري كما يطبق عليَّ وجودي قريبا من العالم السّفلي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين كنا نتجوّل في (مكّة مول)، أنا ودُنْيا، وبعد أن اشترت كمية كبيرة من مساحيق التجميل، قالت لي هامسة، ولا أعرف كيف تسللت هذه العادة إليها: لم أكن أعرف أنكِ كنتِ بحاجة إلى رجل إلى هذا الحدّ! وأضافت: بما أنكِ كذلك، فإن عليك أن تختاري بعض الملابس الدّاخلية الماجنة!

قلت لها: إلّا هذه. أُفضِّل أن أسير عارية في الشارع على أن أرتديها. إن رؤيتها في واجهات المحلات، معروضة على ذلك النحو، تثير اشمئزازي.

- أنتِ حرّة، والعريس عريسكِ! همستْ.

- اتّفقنا. حين تتزوجين أنتِ، اشتري ما تشائين من هذه الملابس.

- تعرفين، حياة، ولكن لا تغضبي، أرجوكِ، كان على أنس أن يمضي في طريقه ذلك اليوم! أو أن يتّجه نحوي، مع أن هذا لم يكن واردًا ربما، لكن شيئًا ما حدث. هل تأكدتِ من أنه ليسَ أَحْوَل؟!

- لا، ليس أحْوَل، والمهم ألّا تظلي حوْلاء إلى الأبد، كي تتمكّني من اختيار من تحبين!

- المشكلة ليست فيّ! هناك من لا يريد لي هذا، أنا واثقة، ولذا أصيبَ الشباب كلّهم بالحوَل، لسبب أجهله، منذ أن بلغتُ العشرين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8

قال لي إدريس بمجرد أن فتحتُ الباب، بعد أن ارتديت ثيابي على عجل: الموقف يقتضي أن أطردكما الاثنين، والآن! لكني سأكتفي بخروجه من شقتكِ ومغادرتها فورًا.

سألته بعصبية: تقصدُ مَن؟!

- ذلك الشاب في الدّاخل.

- ولكنه خطيبي.

- لا، ليس خطيبك يا آنسة. يكفي ما حصل لك، هناك، في الطابق السابع.

ولأول مرة أَنتبه إلى أن البناية من سبعة طوابق، فقد كنت أرى أربعة فوق مستوى الشارع، لكن لم يخطر ببالي أن أضيف إليها الثلاثة التي تقع تحته، وكأنها ليست من البناية!

- وما الذي أدراكَ بأنه ليس خطيبي؟!

أخذ نفسًا عميقًا وحدّق فيّ وقال: وبعدين؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنس، الذي كان يتابع الحوار من الدّاخل، كان قد ارتدى ملابسه، وتقدّم نحو الباب، وقبل أن يصِل، سأل: شو في؟!

- لا شيء أجبتُ!

- بل هناك الكثير يا أستاذ. إذا سمحتَ لا نريد شوشرة، أرجوك أن تغادر البناية فورًا قبل أن يتطوَّر الأمر.

- أيُّ أمر؟ سألتُ.

- هذا الموقف الذي تضعيننا فيه يا آنسة!

- بل أنتَ الذي تضعنا فيه حين تتدخَّل في أمر لا يعنيكَ، وأنتَ تتجاوز هذه العتبة بأسئلتك، هذه العتبة التي هي أقصى حدودكَ!

- أنا معكِ في هذه، ربما تكون عتبتكِ هي أقصى حدودي فعلًا.

- اتّفقنا إذًا. مع السلامة.

- لكن هذه العتبة ليست أقصى حدوده!

- من تعني؟!

- المالك، يا آنسة. فهذا الأمر يعنيه كثيرًا، يعنيه الخارج كما يعنيه الدّاخل.

قال أنَس: لنكتفِ بهذا القدْر من الجدال الذي لن يوصلنا إلى شيء، سأخرج.

وقبل أن أقول شيئًا شدّ أَنس على يدي برفق وتوجّه إلى باب المصعد.

قلت للرجل الملتحي:

- سأصعد للسيد قاسم هذا بنفسي وأتحدّث معه.

- أنصحك، لا تفعلي ذلك؛ إنه غاضب الآن، غاضب جدًا، وكان بودِّه أن يُلقي بكِ مع صاحبكِ، إلى الشارع، بل إلى العالم السفليِّ الذي تحدثتِ عنه فعلا! لكن، لأمر لا أدركه قال لي: فلتطرد ذلك الشاب.

صرختُ في وجهه: يطرده من بيتي؟!

- إنه بيته آنستي، إنه بيته، لا تنسي ذلك!

- والقانون؟ أليس هنالك قانون؟!

- إذا ما كنتِ تصرّين على وجود قانون يحميكِ، فستجدين نفسك تحت طائلة قانون يُلقي بك في الجحيم! اسمعي نصيحتي، دعي الأمر ينتهي عند هذا الحدّ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقفتُ أمام الباب، غير قادرة على أن أعرف إن كان هذا البيت بيتي فعلًا أم بيته!

تركتُ الباب مفتوحًا ودخلتُ، تناولتُ هاتفي واتصلتُ بأنَس؛ وقبل أن أتكلّم قال لي: اهدئي! لا نريد الآن أيَّ مشاكل. تعرفين أننا نحن من سنختار النهاية السعيدة التي لا تفصلنا عنها سوى عدة أسابيع!

- ولكنني بحاجة لأن أراك قبل أن تسافر.

- صعب، تعرفين، الطائرة تغادر باكِرَةً.

- سأُوصلكَ إلى المطار.

- أنتِ تذهبين إلى عملك، وأنا إلى طائرتي. أوكي.

- أوكي. لكنني لن أسامحه أبدًا، هذا الذي أفسد ليلتنا، لن أسامحه في أي يوم من الأيام.

- ستسامحينه ما إن تجدي أننا قد أصبحنا تحت سقف واحد، ستسامحينه لأنه لن يجرؤ بعد الآن على طَرْقِ باب بيتنا أبدًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

9

بعد ثلاثة أيام، وحين وصلت البناية، وجدت نفسي أُوقِف السيارة بسرعة، حين لمحت ساكن الطابق الأخير، للمرة الأولى، في الشّرفة المطلّة على الغرب.

كنت على ثقة بأنه يدوّن كلمات ما في ورقة، أو دفتر صغير في يده.

أطفأت محرِّك السيارة، بعيدًا عن مدخل كراج البناية، ورحتُ أراقبه محاذرةً أن يلمحني.

الشيء المستحيل كان، هو أن أتمكن من رؤية وجهه من المكان الذي أنا فيه. لكن أن أراه، ولو عن بعد، فذلك يكفيني، بعد أن بدأتُ أعتقد أن كلّ ما يقال عن وجوده أمرٌ غير صحيح.

بعد لحظات، رأيته ينظر نحوي مباشرة، أحسستُ بنظراته تخترق الزجاج الأمامي لسياراتي وتستقرُّ عميقًا في صدري.

تجمَّدتُ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم أكن قد تمكنتُ، بعدُ، من التقاط أنفاسي، عندما رأيته يغادر البناية بسيارته البيضاء، وقبل أن يصلني، خفضتُ رأسي محاوِلةً الاختباء!

كنت أسمع صوت محرِّك سيارته وصرير عجلاتها. ظلَّ يتقدّم إلى أن أوقفها إلى جانبي تمامًا. وسمعتُه يقول شيئًا ما، شيئًا غريبًا لم أفهمه، فازددتُ التصاقًا بفخذيّ.

لم يكن قد توقّف أكثر من ثوان قليلة؛ وحين ابتعد، رفعتُ رأسي. كنت أريد أن أفرّ واختفي، هنالك في جوف كراج البناية، بأسرع ما أستطيع. أدرتُ المحرِّك، وبدل أن أمضي إلى الأمام، وجدتُ يديّ تديران المقود بسرعة، وقدمي تضغط على دواسة البنزين بأقصى ما فيها من قوّة، وكما يفعل شاب طائش، وجدتُ السيارة تدور ثلاث دورات في عرض الشارع قبل أن أنطلق وراءه!

لم أشعر في أيّ يوم من الأيام أن جسدي ليس لي، مثلما كان في ذلك اليوم.

بعد قليل، أدركْته أمام شارة ضوئية لا تبعد كثيرًا عن أحد الأنفاق التي باتتْ تتكاثر في عمّان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

10

لم يكن حريصًا على شيء أكثر من حرصه على ألّا يغيب عن نظري. أحسستُ بهذا من طريقته المتأنية في قيادة سيارته البيضاء المُعتمة.

بعد جولة طويلة، أوقف سيارته أخيرًا، أمام حدائق الحسين، ترجّل منها، وعبر البوابة.

تبعتُه، كما لو أن يدي مربوطة بخيط ينتهي في يده!

اختار مقعدًا وجلس.

على بعد خمسين مترًا وجدتُ نفسي أختار مقعدًا وأجلس خلفه.

لسعة برد تسرَّبت إلى جسدي، إذ إن آخر شيء كان يمكن أن يخطر ببالي هو أن أجد نفسي في حديقة عامة في هذا الوقت من السنة، وأنا لا أرتدي سوى هذه الملابس الخفيفة.

بعد قليل، نسيته، عندما وجدتُ عينَي تراقبان فتاة وصديقها، كانا على بعد ثلاثين مترًا منه على الأكثر، يتناجيان كطائري حُبّ. رأيتُ الشاب يقف ويخلع معطفه ويلقيه على كتفَي صديقته. حاولتْ أن تقنعه بأنها لا تشعر بالبرد، أو هكذا خيّل إليّ: ستبرُد!

لكنه أصرَّ. تلفّعتْ بالمعطف، وبدا لي أنها كانت تعاني من برْد قاتل أكثر من ذلك الذي أعانيه؛ والتصقت بالشاب أكثر.

في ذلك السّكون الشّاحب، انطلقتْ ضحكتُها، ضحكة من القلب فعلا، ضحكة سعادة غير عابئة بشيء. قدَّرتُ أنه ألقى على مسامعها نكتة ما، وفوجئتُ أنني لم أُصب بعدوى ضحكتها، بحيث أبتسم على الأقل!

نظرتُ نحوه، ذلك الذي تبعته. فانتابني خوف ما، اعتصر قلبي، كما لو أن نوبة قلبية داهمتني. امتدَّت يده إلى جيب معطفه الطويل، وأخرج دفترًا صغيرًا.

انتقلتُ إلى الجانب الآخر من مقعدي لأتأكّد مما سيفعل، وكما توقعتُ، كتبَ ربما كلمتين، ثم راح يحدِّق في الشاب والفتاة، هزَّ رأسه، ثم عاد يكتب من جديد.

لم يكن قد أنهى السَّطر الرابع أو الخامس على الأكثر، حينما رأيت الفتاة تستدير وتوجِّه صفعة شديدة للشّاب! تُلقي بمعطفه أرضًا، وتبتعد!

التفتَ الشاب نحونا، فرآنا نحدّق فيه، واستقرَّت عيناه فوق وجه ساكن الطابق الأخير، الوجه الذي لم أره بعد. ثم نهض الشاب وركض خلف الفتاة

تاركًا معطفه على الأرض، فتأكّد لي أنه يحبها فعلا.

كانت على وشك الوصول إلى باب الحديقة، حينما توقَّفتْ وأغارت عليه وصفعتُه مرة أخرى، وابتعدتْ!

حارس البوابة، تأهّب للتدخّل، إلّا أنه لم يفعل.

التفتُّ إلى ساكن الطابق الأخير، فرأيته يعيد دفتره إلى جيبه في تلك اللحظة.

نهض، واتّجه إلى البوابة.

كان لا بدّ من أن يحاذي الشّاب في نقطة ما، وقد حدث ذلك، وكم فاجأتني صرخة ذلك الشّاب في وجه ساكن الطابق الأخير، وجمْلته الغامضة المجروحة تلك: أنتَ السبب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين رأيتُ الحارس يهمّ بإغلاق باب الحديقة، وقد هبطتِ العتمة، حاولتُ النهوض، لكنني اكتشفتُ أن جسدي قد تحوّل إلى لوْح من جليد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11

في الأيام الثلاثة التالية، كنتُ فريسةَ خوف غامض، وتحوَّلتْ تلك الرّغبة العارمة، بأن أرى وجه ساكن الطابق الأخير إلى نقيضها. لكن ما استطعتُ السيطرة عليه في صحوي، لم أستطع كبْحه في نومي!

وجهه راح يظهر ويختفي، يتّضح للحظات، ثم يتشوَّه. كنتُ أحلم بأنه في المرآة، أنظر صوبها لكن المرآة تبدأ بالتموّج مثل أيّ بركة تهزّ الريح سطحها، وتمتصّ بموجاتها ملامحه قبل أن تمضي بها إلى نقطة سوداء في أقصاها.

أنهض كلَّ ليلة ثلاث أو أربع مرات على الأقل، جسدي يقطر عرقًا، وسريري مبتلّ. أمضي إلى الباب وأتأكد من أنه مُقفل، وحين أعود إلى السرير أكتشفُ استحالة النوم فيه، فقد غدا باردًا بصورة لا تُحتمل، أُغيِّر الشراشف، أخلع ملابسي. أنظر حولي خائفة، ويهيأ لي أنني أسمع في الظلمة تنفُّسًا رتيبًا هادئًا. أشعل الضوء، قبل أن أرتدي شيئًا. كيف أفعل ذلك؟! ماذا لو كان هنالك شخص في الغرفة فعلًا؟! ماذا لو كان ساكن الطابق الأخير قد تسلّل بطريقة ما إلى شقّتي عبر مدخل سريٍّ، هو وحده الذي يعرفه؟!

لا شيء.

لا أحد.

أُطفئُ الضوء وانسلّ عارية إلى السّرير، ولا أعرف لماذا أتناسى تمامًا مسألة ارتداء بيجامة جافة غير تلك المبتلّة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صباحًا أذهب إلى العمل، أعضائي تكاد تسقط، وخلاياي تتحلّل. دُنْيا تُربِّت على كتفي، فأحسّ بلحمي يُهرسُ تحت أصابعها!

- إياك أن تكوني متيَّمة بذلك الشاب إلى هذا الحدّ. تقول لي فزعةً! فأحسُّ بالهواء يهتزّ ويتحوّل إلى دوامة تقتلعني وتُلقي بي إلى الأعلى، إلى هناك، إلى الطابق الأخير.

أُفاجأ بوجود طيور وأرى أفعى تقترب مني؛ أرى أشجارًا صغيرة، بل وأرى جدولا يخترق الصالون، أحاول أن أعرف من أين ينبع وأين يصبّ، فلا أعرف، مياهه تبدو بمويجاتها ذاهبة وعائدة في الوقت نفسه.

وأرى زرافة صغيرة!

لم تكذب زوجة حارس البناية حين قالت لي: والله كأنني رأيت زرافة صغيرة يا مدام!

تهزّني دُنْيا، فأصحو.

- أين وصلت؟!

- إلى الطابق الأخير، أقول لها، إلى الطابق الأخير.

- مَن يعرف، ربما لم يوجد ذلك الطابق إلا لكي تكوني فيه، فكِّري بذلك!

- ماذا تعنين؟

- لدي إحساس بأنه سيكون لكِ في النهاية، لكنكِ ما زلتِ تسيرين عكس الريح!

- أيّ ريح.

- ريح ساكِن الطابق الأخير! ألم تفهمي بعد؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد انتهاء العمل أصرّتْ دُنْيا على أن تأخذني إلى كوفي شوب، قالت شبه ساخرة: تحتاجين هواء. هذا كلُّ ما في الأمر، بعد أن أطاح بك الهوى!

استخدام جملة فائقة الفصاحة، في بعض المواقف، كان هوايتها المفضَّلة. وسألتني: أتبعُكِ أم تتبعينني إلى الكوفي شوب؟

قلت لها: أتبعك، لأنكِ إن تبعتِني ستجدي نفسك في بلد آخر!

فعلقتْ بسخرية أكثر وضوحًا: بلد المحبوب يعني؟! وغنت بصوت خفيض:

على بلد المجبوب ودِّيني

زاد وجدي والبعد كاويني.

كانت في حالة مختلفة تمامًا، كما لو أنها ليست هي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المقهى الصاخب، في مجمع (سيتي مول) الأكثر صخبًا، حاولتُ أن أشرح لها ما أعانيه. استمعتْ إليّ حتى النهاية، وكم فاجأني أن ردَّ فعْلها كان باردًا كما لو أنها تعرف القصة.

سألتني: انتهيتِ؟!

- انتهيت.

- أحسّ بأنك تريدين الاستماع إلى رأيي.

هززتُ رأسي كما لو أنني أقول لها أجل.

- إشربي قهوتك أولا، أنت بحاجة لأن تستيقظي! قالت لي موبِّخةً.

امتدّتْ يدي إلى فنجان القهوة فوجدته باردًا كقطعة ثلج، رفعتُه نحو شفتي وشربتُه دفعة واحدة.

- بصراحة لا أعرف ما الذي يقلق راحتكِ! واحدة مثلي هي الأحقُّ بهذا القلق. ما الذي ينقصكِ: موظفة ناجحة، فتاة جميلة، بل جميلة للغاية، كان يمكن أن يدفع بك هذا الجمال إلى الأعلى، أقصد لتكوني مضيفة طيران من الدّرجة الأولى! أنظري حولكِ، ذلك الشاب هناك ينظر إليكِ منذ أن وصلْنا؛ والشباب الثلاثة الجالسون هناك، عدّلوا جلساتهم لينظروا إلى هنا، إليكِ؛ والشاب الذي يجلس خلْفي، أراهنكِ أنه يحدّق فيك الآن، لأنني أحسّ بنظراته تخترقني كلما تحرّكتُ وحجبتكِ عنه!

نظرتُ، كان الشاب يحدّق بي فعلا؛ ارتبك، وابتسم كما لو أنه يعتذر، كما لو أنه يقول: مجرد نظرة دون قصد.

- هل صدَّقتِ؟! أنا التي يجب أن تقلق، أنا التي لم أحظ بعد حتى بنظرة طائشة، تكون موجهة إليكِ فتنحرف قليلا فتصيبني! يعني بصراحة، أنتِ لا تدركين ذلك الكنز الذي تحملينه ويحملكِ، أعني جسدكِ. ها قد بدأتُ أكتبُ شعرًا فيكِ! هل يعجبكِ هذا؟! بدل أن أكتب شعراً في حبيب أو حتى في صديق.

حاولتُ أن أبتسم لها، وقد رأيتُها تبتسم، لكنني لم أستطع.

- ثم إذا كنت تحلمين بأن تسكني هناك، في ذلك الطابق، فلم لا تختارين الطريق الأقصر.

- أيّ طريق؟

- أعني، إنسي أنَس، فأنتِ ما زلت على البرّ، وتزوّجي بمالك البناية! وهكذا تصيبين عصفورين بحجر، يصبح الطابق كلّه لك، وترتاحين من دفع أجرة شهرية. ثم إنه شخص جميل.

انقبض قلبي، شعرتُ بأنها مثل امرأة لعوب تحاول التغرير بفتاة لتحوِّلها إلى سلعة رخيصة!

- وما الذي أدراك بأنه شخص جميل؟!

- ما الذي أدراني؟! أنتِ قلتِ لي هذا بنفسكِ.

- لا، أنا لا أتذكَّر أنني قلت لك كلامًا كهذا، لأنني لم أرَ وجهه أصلًا.

- يا ستِّي، لن نختلف! ربما أكون قد رسمتُ له صورة وأنت تصفِين مشيته ومعطفه والطريقة الأنيقة التي ينظر بها، وكيف يُخرج دفتره ويتأمّل. على أيّة حال أنا لا أمزح.

- وهذا ما يرعبني!

- أنَس ظهر فجأة، توقَّف أمام واجهة مكتبنا، وفي الأصل كان عليه أن يواصل مسيره! أي أن يبتعد، ويتحوّل بذلك إلى أي رجل عابر، مثل كل هؤلاء الذين حولكِ! هل تعرفين بأنه كان من المفترض ألّا يراكِ!

- لكنه رآني يا دُنْيا، رآني ودخل. هل أُعيد عليكِ القصة التي حدثت أمامك؟!

- أعرف كل شيء، لكن لا تنسَيْ أن ساكن الطابق الأخير يحبكِ، ويبدو أنه مستعدٌ لأن يفعل أي شيء من أجلك.

- وما أدراك أنه يحبني؟!

ارتبكتْ قليلا.

- هذا أمرٌ واضح، لو لم يحبكِ لما ألقى إليك بصنارته لتتبعيه، وتصبحي أسيرةً له، وتفكّري فيه ليل نهار! ثم هل نسيتِ رسالته التي دفعها إليك من تحت الباب؟!

- لكنني لا أريده.

- ألم أقل لك بأنك تحبينه. لقد غدا جزءًا منكِ دون أن تنتبهي!

- أنا جزء من إنسان واحد، هو أنَس.

- فلنغيِّر الموضوع. ما رأيكِ؟! يبدو أنك لم تنضجي بعد، حياة!

- فلنُغيِّر الموضوع.

صمتْنا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12

كنتُ أنتظر وصول المصعد لأهبط إلى كراج البناية، ضغطتُّ على الزرّ، ثم نظرتُ إلى لوحته المعتمة المضيئة، لم أعرف إن كان سيأتي من الأسفل، أم من الطوابق العليا، فمنذ حادثة حدائق الحسين، وأنا أخشى اللقاء بصاحب العمارة بأي شكل من الأشكال.

رأيتُ ذلك الرّقم الذي يشير إلى الطابق الأخير، وحين بدأ المصعد يتحرّك هابطًا، هبط قلبي، إذ لم يكن هنالك وقت يكفي لأفتح بابي وأغلقه خلفي. قلتُ: قد يحالفني الحظّ ويتوقّف في الطابق الأرضي، ويخرج منه ذلك الذي فيه!

لكن المصعد واصل هبوطه؛ حاولتُ الابتعاد. كان الوقت قد فات. توقّف أخيرًا. وكما لو أنّ صاعقة أصابتني، وجدتُ نفسي وجهًا لوجه مع دُنْيا! وكم فوجئتْ بدوْرها، قبل أن تجد الكلمات التي لن تُسعفها أبدًا.

كانت ملامحها قد اختفت تقريبا تحت طبقة من المكياج سميكة تشبه القناع!

- دُنْيا!

- حياة!

- ما الذي تفعلينه هنا؟!

- كنت قادمة لزيارتكِ!

- ولكنكِ جئت بالمصعد من هناك، من الطابق الأخير!

- صحيح، لم أنتبه. غلطة ربما! أو لعلّي ودون وعي مني ضغطّتُ على زر المصعد الخطأ! لعلّي اعتقدت أنكِ تسكنين هناك لفرط ما تحدَّثتِ عن ذلك الطابق!

لم تُقنعْني إجابتها، لأن ارتباكها كان أكبر من ارتباكي. كنتُ على وشك أن أقول لها: ولكنك لم تخبريني بأنك قادمة لزيارتي!

وقبل أن أقول ذلك، ردّتْ بصوت لم يكن يشبه صوتها.

- كنتُ أريد أن أفاجئكِ!

- هل سألتكِ لماذا لم تقولي لي إنك قادمة؟!

- يهيأ لي أنكِ سألتِ! أليس كذلك؟!

- لا، أنا لم أسأل، كيف عرفتِ ما أفكر فيه؟!

- ولو يا حياة، أهكذا تستقبلينني؟!

- آسفة، أنا مرتبكة قليلًا، أعذريني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في داخل شقتي، صمتْنا، كانت الواحدة منّا تنظر إلى الأخرى بريبة من يقابل شخصًا للمرّة الأولى، ويجد نفسه مضطرًّا لمقاسمته غرفة النوم نفسها.

- سأُعدُّ قهوة، لكِ ولي، قالت، ولم تمهلْني. مضتْ باتجاه المطبخ، وسمعتُ أبواب الخزائن تُفتح وتُغلق وقرقعة الفنجانين في الصَّحنين.

لسبب ما، أحسستُ بأنها تريد أن تبتعد عني، قدر ما تستطيع، لتلملم نفسها من جديد. لكن الأمر لم يكن كذلك على ما يبدو، إذ سمعتُها تتكلّم في هاتفها، وتُعلن أسفها المتكرِّر، بل وخُيّل إليّ أنها كانت تطلب العفو!

اقتربتُ من باب المطبخ، لكنني شعرتُ بيد تشدّني إلى الوراء! إلى متى سيظلّ هذا الأمر يحدث، كلما اقتربت من اكتشاف شيء ما، أو تغيير شيء ما؟!

قاومتُ بكل ما لديّ من قوة كي لا أعود إلى مقعدي، وبصعوبة تمكنتُ من الوصول إلى الباب، ولم يكن يلزمني أكثر من ذلك، لأسمع تلك الجملة المُحيِّرة، الجملة اللغز، الرّجاء المجروح: أرجوك، لا تفعل ذلك! أرجوك، لن أكرر هذا الخطأ! خلاص، خلاص، سأغلق فمي!

وعمَّ الصمت من جديد، وبتُّ على يقين من أنها قد تكون أحسّتْ بوجودي.

- مع من تتحدّثين؟ سألتها وقد انتصبتُ أمامها فجأة.

- مع من أتحدّث؟! هل كنتُ أتحدّث؟! لا يهيأ لي أنني كنتُ أتحدّث، ربما كنت سارحة فقلتُ شيئا!

- من الذي يهدِّدكِ، وتخشين أن يُلحِقَ بك الأذى؟!

ارتبكتْ أكثر، ورأيتُ صينيّة القهوة في يدها تهتزُّ بعنف.

فاضت القهوة..

اقتربتُ، وأمسكتُ بالصّينية؛ وفي تلك اللحظة بالذات، أحسستُ بأنها تعاني من مشكلة كبيرة. استدرتُ وسرتُ نحو الصالون الصغير، وقبل أن أجلس كانت عاصفة بكائها تحاصرني!

وضعتُ الصّينية على الطاولة الصغيرة، واستدرتُ؛ احتضنتُها، وجلستُ دون أن أتركها تبتعد. ألصقتْ وجهها بفخذَي، وتصاعد بكاؤها أكثر.

كنتُ أريد أن أطلب منها أن تتحدّث، أن تُفضفض، أن تصارحني، أنا صديقتها، ولكني بدل ذلك، قلتُ لها -رغما عني-: أرجوكِ، اهدئي الآن، ولا تقولي شيئًا!

رفعتْ وجهها نحوي، وحاولتْ أن تبتسم، فأبصرت أقبح وجه رأيته في حياتي وقد اختلطت الألوان التي تغطيه بصورة مرعبة !

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا أذكر كيف انتهت جلستنا، لا أذكر إن كنا احتسينا القهوة أم لا، كنتُ أشبه بامرأة شربتْ حتى الثمالة، وكذلك هي، فحين استيقظتْ لم تعرف ماذا قالتْ، أو فعلتْ، أو كيف وصلتْ إلى المكان الذي هي فيه. وكدتُ أجزم أن ما حدث كان حلمًا، أعني: كابوسًا. ولعلَّ ذلك كان صحيحًا، إذ كنتُ في حَيرة تامة من أمري، وأنا أرى دُنْيا تتصرّف معي صباح اليوم التالي، كما كانت تتصرّف دائمًا، بمحبة، وانطلاق، كما لم يظهر أيّ ارتباك على ملامحها وهي تتقدّم نحوي مبتسمة، بعد أن أزالت ذلك القناع المفزع.

وسمعتُ قلبي يقول لي: لا تخسري صديقتكِ بسبب وهْمٍ أو كابوس.

فابتسمتُ لها، ابتسمتُ فعلًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13

بعد أيام بدأتُ أعيد النّظر من جديد فيما حصل أمام المصعد، ولم يكن بإمكاني أن أتأكّد من هذا إلا إذا اختفيتُ في مكان لا أحد يستطيع توقُّع وجودي فيه.

كان من الصَّعب عليَّ أن أذهب إلى أُمٍّ أو أخت أو خالة أو عمّة أو أخ، فلسبب لم أدركه أبدًا لم تكن لي عائلة! فأنا، كما يقول الشاعر إيليا أبو ماضي:

(جئتُ، لا أعرف من أين، ولكنني أتيت

وسأبقى سائراً إن شئتُ هذا أو أبيت.)

وقد يكون هذا سبب حبّي لأغنية محمد عبد الوهاب، من غير ليه.

كلّما فكرتُ في ذلك تشوشتُ أكثر، تمامًا كلقائي الغائم بدُنْيا أمام المصعد! كان يحيرني أن دُنْيا لم تكن تسألني عن أمي، أو عائلتي، بل لم تسألني السؤال الأبسط: لماذا تسكنين وحدك؟!

ربما لا يكون الذَّنب ذنْبها في هذا، لأنني لم أسألها بدوري عن أسرتها، اكتفينا بالمكتب والمقاهي وبعض الأفلام، والسّهرات الصغيرة في مقهى جَفْرَا، ولا شيء غير ذلك.

حيّرني هذا كثيرًا، وحيرني أنها وصلت إليَّ مع أنني لم أُعطها عنوان شقتي يومًا! تلك الشّقة التي يبدو الوصول إليها مستحيلًا أحيانًا، بسبب الطرق الكثيرة والتقاطعات التي على المرء عبورها قبل أن يهتدي لتلك العتبة. ولا أبالغ إذا قلت: إنني وطوال شهر، لم أكن أجرؤ على التأخُّر ليلا، لأني كنت على ثقة بأنني سأضلُّ الطريق، بعد أن حدث ذلك ثلاث مرات، وفي عزّ النهار!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اختفيتُ أخيرًا، وصلتُ إلى المكان الذي لا يمكن لأحد أن يهتدي لطريقه، مكان بعيد عن العاصمة، كان عليَّ أن أقود السيارة كثيرًا في ذلك اليوم كي أصله، وإمعانا في الحرص، وضمانًا لعدم ملاحقتي من أيّ كائن حيٍّ أو غير حيٍّ، دخلتُ شوارع ضيقة، وأخرى واسعة، أنفاقًا، وصعدتُ جسورًا، إلى أن وصلتُ.

بقيتُ أقود وأنظر إلى هاتفي، إلى أن رأيت إشارة الاتصال تختفي، وتظهر مكانها سماعة هاتف يعلوها خط يفيد بعدم إمكانية إجراء أي اتصال!

في النهاية، وصلتُ لما أريد؛ ولم يكن صعبًا عليَّ أن أعرف أنه المكان المطلوب، لأن ذاكرتي وإحساسي بجسدي قالا لي ذلك.

كما لو كان رأسي محشوًّا بالغيوم

وطريقي مقفلة بضباب صلب!

وعيناي منقوعتين في ليل لزج!

وقدماي مشدودتين لريح ضالة!

وقلبي مقيّدًا بذكرى وحيدة!

تغيّر كل شيء، وانقشع الضباب والغيم وهدأت الريحُ ورأيت الشمس وتذكّرتُ.

لكنني لم أفهم شيئًا.

استعدتُ ذلك اليوم الذي عبر فيه أنَس بوابة مكتبنا، ورأيت نفسي أميل نحو دُنْيا وأوشوشها: لو عبر ذلك الشاب عتبة مكتبنا، سأكون أسعد إنسانة في الوجود.

تلفتتْ دُنْيا حولها بخوف وقالت لي: لا تُعيدي مثل هذه الجملة، فالأمور غير مخطط لها لأن تسير في هذا الاتجاه!

لم أفهم كلامها، وربما لم أسمعْه في تلك اللحظة، لأنه لم يكن يعنيني

وأنا أتطلّع إلى ذلك الشاب أمام الواجهة.

نظرتُ إلى دُنْيا، كانت تتلفّت حولها، بل وراءها، ولا أدري لماذا كانت تتلفّت وراءها بالذات، وهي تعرف أن ليس هناك سوى الحائط!

ثم كانت صرختها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استعدتُ مشهد المصعد المُريك، وتبيَّن لي أنني لم أكن أحلم، ولم أكن أتخبّط في قبضة كابوس، لقد كان الأمر حقيقة. ورحتُ أحاول ما استطعتُ تذكّر أمر أهلي، إن كان لي أهل، فلم أصل إلى شيء! أما ما جعلني أرتبك فعلا، فهو أنني لم أتذكر أيَّ بيت سكنتُ قبل هذه الشقّة، وازداد الأمر سوءًا حين لم أتذكّر أين أمضيتُ طفولتي، ومن أيِّ مدرسة وجامعة قد تخرّجتُ، وكيف حدث وأن وجدتُ نفسي أعمل في مكتب شركة طيران، وأعرف أكثر من لغة!

أدرتُ محرّك السيارة وعدتُ، غير واثقة من أنّ ما حولي حقيقيّ.

كانت شمس ذلك اليوم، الذي لا ينتمي للشتاء، قد بدأتْ تغرُب، شعرتُ بالبرودة، عدتُ، وكم فاجأني أنني وصلتُ إلى البيت بتلك السّرعة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين فتحتُ الباب، انتابني حسٌّ بأن دُنْيا هي صديقتي الوحيدة، وأن عليّ ألّا أُضيِّعها لأيِّ سبب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14

عرفتْ دُنْيا موعد عودة أنَس قبلي!

في آخر اتصال بيننا من مدينة جدّة قال لي إنه قد يتأخر، وإنه قد لا يتأخر! ولم أفهم شيئًا. ما فهمته،أو ما أحسسته، هو أن نبرة صوته كانت مختلفة، ولو لم أكن واثقة بلقائنا الأول وليلة وداعنا الدافئة، لقلتُ إنه تغيّر، وإن هناك ما، أو مَن، غيَّره؛ ولكن، كيف يمكن أن يتغيّر في شهر؟! لو كان في بلاد أخرى، يتاح له فيها أن يخالط النساء بيسر! لقلت: لعلّه وقعَ في الحب. وهذا أمرٌ محتمل، فعمر حبنا، بكل المقاييس قصير؛ وإذا ما نظرتُ لهذا الحب من زاوية العقل، فسأصل إلى أنه خاطف، مثل شهاب؛ فلم أكد أعرفه حتى رأيته يسافر؛ وإذا ما ذهبت في الأمر أبعد من هذا، فسأقول: لعله لا يستطيع الآن تجميع ملامحي من الذّاكرة، كما لا أستطيع الآن!

هذه المسألة كانت تؤرِّقني، لأنني عملت الكثير كي أحتفظ بملامحه، وحين خطرتْ لي فكرة أن ألتقط له صورة بهاتفي النقّال، زجرتُ نفسي، وتراجعتُ عن ذلك، وهمستُ: إذا نسيتِ يا حياة ملامحه، فأنتِ لا تحبّينه! وقد تذكَّرتها تمامًا؛ لكنها اختفتْ؛ هل أقول في ذلك اليوم الذي فوجئتُ فيه بدُنْيا أمام المصعد؟! لا أريد أن أُحمّلها مسؤولية كلِّ ما يصيبني، يكفي أنني شككتُ فيها، يكفي أنني اكتشفتُ أن شكّي ليس في مكانه، ألم أقرُّ، وأقرر بأنها صديقتي الوحيدة، وأنّ عليَّ الحفاظ على صداقتها تحت كل الظروف.

ماذا لو تركتْني، مع من سأتحدّث؟! سيغدو العالم أشبه بصفحة بيضاء يغمرها الثلج!

من قال إن الحبر أكثر حلْكة من الثلج؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم أستطع إلّا أن أسألها: كيف عرفتِ بأنه سيعود، قبل أن أعرف؟!

ارتبكتْ، وقالت أخيرًا، مستخدمة ذلك الصوت الذي لا يشبه صوتها: ألم تقولي لي؟! كيف لي أن أعرف إن لم تقولي لي؟!

كنتُ متأكدة من أنني لم أقل لها، لأنني لم أعرف أصلا موعد عودته.

راحتْ تراضيني. كنت غاضبة. فقالت لي: عليك أن تكفّي عن تحميلي سبب كلِّ شيء، فالأمر ليس في يدي.

- في يده إذًا! هل تتواصلان من وراء ظهري، هل تفكرين به؟ هل تريدينه؟ أجيبي!

- من تعنين؟ وغطى الرّعب ملامحها.

- أنَس، من أعني هنا غير أنَس؟!

أخذتْ نفسًا عميقًا، وأقسمتْ لي أن فكرة كهذه لا يمكن أن تخطر لها ببال.

- ببال من خطرتْ إذًا؟

صمتتْ، وطلبتْ منّي أن أُخفض صوتي! وكما حدث ذات يوم في المكتب، بدأت تتلفّتُ حولها برعب.

سألتها: ما بكِ؟!

اقتربتْ مني مثل طفل مريض، التصقتْ بي، ألقتْ رأسها على كتفي، وبدأتْ تبكي!

لم يكن ينقصني إلّا هذا! أن تبكي فتاة بعمرها على كتفي!

في تلك اللحظة أصابني حسٌّ غريب، بأنني لا أعرف أين نحن فعلًا!

فسألتها: أين نحن؟! ربما لأبعدها قليلا عني.

قالت: نحن في مجمع زارا، وازدادت التصاقًا بي.

- وما الذي أتى بنا إلى هنا؟

- لقد جئنا لتناول طعام العشاء وحضور فيلم.

- وما اليوم؟ أقصد نحن في أي يوم؟

- الأربعاء، أليس اليوم هو يوم الأربعاء؟!

- لا أعرف، هل هو يوم الأربعاء حقا؟

نهضتْ، كان وجهها مبتلّا، مسحتْ الدموع بظاهر يدها، ولم أعرف لمَ لم تحسّ بوجود مخاطها الذي كان يلمع فوق شفتها العليا! سأحضر الطعام. وقبل أن أسألها أيّ طعام؟! أضافتْ: ولأعرِفَ في أيّ يوم نحن! وهيئ إليّ أنها ضحكتْ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان ذهابها فرصة لي لكي أنظر حولي لأتأكّد أين نحن فعلا. ولسبب ما أحسست بأن كل شيء حولي يتمُّ ترتيبه بسرعة ضوئية كي يكون المكان مشابها تمامًا بديكوره لذلك الطابق الذي يضمُّ المطاعم ودور السينما في مجمع زارا!

لا أعرف كم مرَّ من زمن وأنا على تلك الحال، وحينما تنبّهتُ أخيرًا، وتذكَّرت أن دُنْيا ذهبتْ لإحضار الطعام، أدركتُ بأنها تأخَّرتْ. هممتُ بأن أنهض

لأتفقّدها، لكنني لم أستطع، كان الكرسيُّ ملتصقًا بي تمامًا. يا للهول! قلت: أيكون أحدهم عملَها ووضع لاصقًا قويًّا لم ألحظه قبل أن أجلس؟!

حاولت تحريك الكرسي، فبدا لي الأمر أصعب، أحسستُ بحرج شديد. كيف يمكنني العودة للبيت وكرسيّ كامل يلتصق بمؤخّرتي؟! ولم أعرف إن كان أحد قد لحَظَ الورطة التي أنا فيها أم لا.

نظرت حولي، ورأيته هناك، في زاوية معتمة، ينظر إليّ، وفي يده دفتره الصغير، نعم إنه هو.

كتبَ شيئًا ما، وابتعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين عادتْ دُنْيا، قلتُ لها: لقد كان هنا؟!

- مَن الذي كان هنا؟

- قاسم! ساكن الطابق الأخير.

- وبعدين يا حياة!

- بعدين؟! أيّ بعدين؟! هل تعرفين بأننا في ورطة لا أعرف كيف سنخرج منها؟

- أيّ ورطة؟

- إنني ملتصقة تمامًا بالكرسي الذي أجلس عليه.

- حياة، هل في نيّتك أن تُجّني أم أن تجعليني مجنونةً؟!

قلت لها: أنظري! ووقفتُ فجأة، وإذا بكلِّ شيء يسير على ما يرام. لا الكرسي ملتصقٌ بي، ولا أنا ملتصقة به!

بصمت بدأنا بابتلاع ذلك الطعام الصِّيني، وعندما انتهينا، قالت: أظن أن حضور فيلم بات ضروريًّا الآن، أحسُّ بأنني بحاجة إلى عالم آخر أسكنه لساعتين!

- سأعود إلى البيت. قلت لها، لأنني أحسُّ برغبة شديدة في قضاء ساعتين في مكان حقيقي!

وإذا بها تفقد أعصابها وتصيح: لا يمكن لنا أن نعود، فقد تقّرر أن نحضر الفيلم، وهذا أمرٌ غير قابل للنقاش الآن!

أصبتُ بالذّهول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الدَّرج الكهربائي كان لا يتوقّف عن النّزول، ولم تكن الطوابق تنتهي.

حين تجاوزنا البوابة المشرعة على شارع وادي صَقْرَة، خارجتَين، هبّت ريح قويّة كادتْ تقتلعنا، فسألتها: هل أتينا بسيارتك أم بسيارتي؟!

- وبعدين! لقد أتينا بسيارتك هل نسيتِ؟!

- ولماذا سمحتِ لي أن أوقفها هنا، وليس في كراج المجمع.

- وهل أنا التي أقودها؟ إنها أنت، ولكن ربما لا يكتمل مشهدنا، مع كل هذا التشوّش الذي يصيبك، إلّا بوجودنا في بطن الريح!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصلنا، سألتها: أين أوقفتِ سيارتك؟ فأشارت إلى سيارة متوقّفة أمام البناية. فوجئتُ بأنها ليست سيارتها القديمة! إنها سيارة جديدة، سيارة حمراء من نوع أوبل ڤـكترا؛ كنت على وشك أن أسالها: متى غيّرتِ السيارة؟ وقبل أن أفعل ذلك، قالت لي: إنها هدية؟! وقفزتْ من السيارة قبل أن أسأل: ومن يُهدي سيارة مثلها؟!

أغلقتِ الباب وابتعدتْ، بقيتُ أنظر إليها إلى أن استدارتْ، دون عناء، رغم ضيق الشارع. حاذتْني، رفعتْ يدها وأشارتْ إليَّ مودِّعة، راقبتها عبر المرآة الأمامية لسيارتي إلى أن اختفت.

أخذتُ نفَسًا عميقًا، ونظرتُ إلى أعلى. كان الطابق الأخير مُظلمًا. كلُّ البناية كانت مُظلمة. كانت هذه هي المرّة الأولى التي أنتبه فيها إلى أنني لم أر أي نافذة مضاءة فيها منذ سكنتُ، بل لم يسبق لي أن رأيت أحدًا من سكانها! انتابني خوف شديد من دخول الكراج. فكّرت في مكان يمكن أن أمضي إليه، فلم أتذكّر، وعبرني صوت يقول لي: إذا لم تستطيعي دخول الكراج الآن، في التاسعة مساء، فمتى ستدخلينه؟ بعد منتصف الليل؟!

انعطفتُ باتجاه الكراج، ركنتُ السيارة في المكان المخصّص للشّقة رقم 3. فتحتُ الباب، واستدرتُ محاوِلةً الوصول لحقيبة يدي في المقعد الخلفي، وقبل أن تلمسها يدي، لمحت ورقة فوق المقعد الذي بجانبي، قلتُ لعلها سقطتْ من دُنْيا، تردّدتُ في فتحها، وقد كانت مطوّية بعناية، لكنني فعلتُها أخيرًا!

جملة واحدة كانت هناك:

(لا تدعي أنَس يأتي على طائرة الثلاثاء.)

وتحت الجملة جملة أكثر غموضًا:

(مزِّقي هذه الورقة فورًا بعد قراءتها. أحرقيها.)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المصعد، كنت أحسّ بأنني أحمل قنبلة في يدي، دخلتُ شقتي بسرعة؛ أغلقتُ الباب، وابتعدتُ، ثم عدتُ وتأكّدت من إغلاقه. لم أحرق الورقة، قاومتُ كثيرًا كي لا أحرقها. درتُ حول نفسي مرات ومرات باحثة عن مكان أُخبئها فيه. لم يكن هناك أيّ مكان آمن، فكل الأماكن مكشوفة ومتوقّعة. ودون أن أدري، كيف حدث ذلك، مضيتُ صوب المطبخ، أشعلتُ عود ثقاب، وأحرقتها، وعندما تأكّد لي أنها احترقت تمامًا، مع إحساسي باحتراق سبابة وإبهام يدي اليمنى، ألقيتُها في حوض الجلْي، فتحتُ الحنفيّة، فتحوّلت الرسالة برمادها إلى جدول صغير أسود، وكم فاجأني أن الأوراق دائما تحترق، أما الحبر فلا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صباحًا، ذهبت إلى العمل، ولأول مرّة بدتْ لي دُنْيا متجهِّمة بصورة غير عادية وهي تنظر إليّ، ثم وهي تشيح بوجهها بعيدًا عنّي.

لاطفْتُها، مستعينة بكلمات أغنية قديمة: ماله الحلو ماله؟!

وقبل أن تجيب، سمعتُ رنين هاتفي، ابتسمتُ من كلّ قلبي، كان أنَس على الخط، قال لي: اسمعيني، أنا مضطرّ الآن لدخول اجتماع، ولكني حجزت على طائرة الثلاثاء!

قلت له: لحظة.

فتحتُ باب المكتب وخرجتُ. لقد تذكّرت أن أقول له شيئًا مهمًا، وخطيرًا، ولكني نسيته!

استدرتُ، ونظرتُ إلى دُنْيا، كانت تهزُّ رأسها برعب، كما لو أنها تقول: لا.

لا أظن أنني تذكَّرتُ في تلك اللحظة رسالتها، وذلك التّحذير المبهم. شيء ما في أعماقي هو الذي دفعني لأن أقول له: لا تأتِ الثلاثاء!

فرد بعصبية: لماذا؟!

- ليس الثلاثاء. أرجوك!

- حاضر! هل الجمعة يناسبك؟!

دون أن أدري لماذا، نظرتُ إلى دُنْيا، فأشارت إليَّ برأسها موافِقة!

فارتحتُ. قلت له: الجمعة يناسبني.

بسرعة أقفل الهاتف.

نظرتُ حولي، كان وجهي لا بدَّ طافحًا بسعادة غير عادية، وقد استجاب لرجائي، وقد أقترب لقاؤنا، بعد هذا الشهر الأطول من دهر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15

بلهفة وفزع، شيء ما فيَّ انتظر حلول يوم الثلاثاء، كنتُ أشبه ما أكون بنائم يسمع ويحسُّ بما يدور حوله ويعتقد أنه حلُم، رغم أنني لم أكن نائمة، كنتُ أواصل حياتي: أذهب للمكتب، وأسمع كلمات الإطراء من دُنْيا، بل قصائد الغزل!

قلت لها: كلُّ لحظة تقرِّبني من موعد لقائه تزيدني جمالا!

فقالت بغضب: لقد كنتِ دائما جميلة يا حياة، ولا يستطيع مخلوق أن يدّعي أنّ أنَس هو سبب تألّق جمالك!

- احترتُ معك، مرّة تزرعين فيَّ الشّك بأنك تحبينه، ومرة تزرعين فيَّ الشكَّ بأنك تكرهينه.

- لستُ أنا التي تُحيّرك، أجابت دُنْيا.

- من يكون إذًا؟

- لا أعرف، صدّقيني لا أعرف.

لكنها كانت تعرف، هذا ما أحسستُ به.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بكل ما لديَّ من قوة، قررت الابتعاد عن محيط الشقة، ففعلتُ ما فعلته في ذلك اليوم الذي اختفيتُ فيه؛ رحتُ أقود وأنظر إلى هاتفي، إلى أن رأيتُ إشارة الاتصال تختفي، وتظهر مكانها سماعة هاتف يعلوها خطٌّ يفيد بعدم إمكانية إجراء أيّ اتصال.

كانت تلك أفضل وسيلة للهروب من الجميع.

أوقفتُ السيارة وتأمّلتُ ما حولي، عالم جميل حقًا نهدره يوميًّا في المكاتب والشقق المغلقة! بعد لحظات تحوّلتْ رسالة دُنْيا إلى حقيقة؛ تذكّرتها تمامًا، تذكرتُ كلّ كلمة فيها، تذكّرت ذلك التحذير الغامض بشأن عودة أنَس يوم الثلاثاء، لكني لم أستطع تفسير ضعفي الذي دفعني لإحراقها. كان يمكن أن تكون دليلا على أنني لم أتوهَّم، ودليلا على أن دُنْيا كانت تحاول إنقاذي من شيء ما.

امتدتْ يدي إلى جيبي وأخرجتُ دفترًا صغيرًا، وكتبتُ فيه كلّ ما تذكرته.

نظرت إلى الهاتف لأتأكد من عدم عودة الإشارة. كلُّ شيء كما أريد.

ولمحتُ: الأحد 21 كانون الأول. عشرة أيامٍ وتبدأ سنة جديدة.

في ذلك المكان الجميل الهادئ المحاط بأشجار الزيتون، الذي يحرسه جبلان عظيمان، ربما كان أحدهما أعلى جبل رأيته في حياتي، قررتُ البقاء إلى أن أتأكَّد من مرور ذلك الثلاثاء القابع على عتبة المستقبل، لأعرف ما الذي سيحدثُ. كانتْ قارورة المياه المعدنيّة التي معي في السيارة كافية لأن أصمد ستًا وثلاثين ساعة. أما مسألة إحضار الطعام فلم تكن تعنيني، مهمَّة الاختفاء، هي وحدها الأساس، المهمة التي لا تقلّ صعوبة عن مهمَّة توم كروز المستحيلة في فيلمه الشهير!

راقبتُ السيارات تأتي وتذهب في الشارع الذي توقفتُ على بعد عشرين مترًا منه، الشارع الذي لم يكن يخلو من شاحنة صغيرة أو حافلة ركاب تويوتا أو سيارة خاصة بين حين وآخر.

في البداية، خشيتُ أن يتقاطر الناس من كلِّ صوب، في هذه المنطقة التي لا يمكن لفتاة وحيدة أن تتوقّف فيها؛ لم يحدث ذلك. كانت السيارات تعبر بسرعة. لكنني كنتُ أخشى الليل، فوقوف أيّ سيارة في مكان كهذا لا بدَّ سيثير الشُّبهة.

لم أجرؤ على الابتعاد بالسيارة أمتارًا أخرى، فقد يكون الشيء الذي تخشاه هو الوحيد الذي سيحميك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مساء، استمرَّت حركة السيارات، ومرّ رعاةٌ يسوقون أغنامهم، وتحت ضوء شمس آفلة، لمحتُ كلبًا يتأخَّر عن القطيع وينظر باتجاهي. نظرَ الرّاعي إليه يستحثّه، لكنه واصل وقوفه وتحديقه، ثم أخذ يتقدّم نحوي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16

مرّ يوم الاثنين بسلام، لم يضايقني أحد، ورأيتُ دوريّةَ الشّرطة، ربما نفسها، تمرُّ أربع مرات دون أن تتوقّف لتسأل عن سرِّ بقائي في ذلك المكان كل ذلك الوقت. وفي المساء، مرَّت قطعان، وتوقَّف الكلبُ في المكان الذي توقّف فيه من قبل، متخلّفا عن اللحاق بقطيعه. اقترب مني ونبح ثم واصل طريقه! وفي الليل، توقَّفتْ دوريّة الشرطة في المكان نفسه، وترجّل منها شرطي، بالَ، وسمعتُ التعليق نفسه الذي أطلقه زميله في الليلة الفارطة، كما يقول التونسيون! وسمعتُ الخرير، فالسّحّاب، فالباب يُفتح ويُغلق، والسيارة تنطلق.

- أي سعادة هذه التي ترفلين بأثوابها يا حياة في هذا المكان البعيد؟! تخيَّلتُ دُنْيا تقول هذا لو عرفت مكاني.

في السابعة والنصف تمامًا، صباح الثلاثاء، صحوتُ، وكتبتُ في دفتري، كي لا أنسى، وبوضوح: مهمَّتك التالية يا حياة هي معرفة ما حدث لطائرة الثلاثاء القادمة من مدينة جدّة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أول شيء فعلته، ما إن تحرَّكت السيارة، هو الاستماع إلى المذياع، لمعرفة أخبار الطائرة.

لم يكن هناك ما يشير إلى حدوث شيء، فالأغنيات ذات الكلمات الرّكيكة، التي يطلقها مغنّون يريدون أن يُقنعوا المستمع بأنهم أُسود الغاب، تملأ الفضاء، وتُعكِّر صفو الصباح الرائق، وتجعل الطيورَ تفرُّ مبتعدةً عن الأشجار القريبة مني. أما شكاوى المواطنين فلم تكن تنقطع، شكاوى من المناهل التي تحوَّلت إلى نوافير، وشكاوى من الحافلات البطيئة وازدحامها، وشكاوى من غلاء زيت الزيتون، وشكاوى من تبِعات احتفالاتِ رأس السنة التي يفصلها عن الشّاكي ليال كثيرة، وشكاوى من السّرطان، وأمراض الكلى، والسّكري، الذي تقول الأرقام بأن ثلاثة ملايين مواطن سيعانون منه عام 2050.

كان يومًا عاديًّا إذًا، يومًا محليًّا بكل المقاييس. أدرتُ محرِّك السيارة، وقررتُ أن أقود على مهل، لأنني لا أريد الوصول إلى شقتي قبل ساعة ونصف الساعة، لأرتّب نفسي؛ فقد أحسستُ بأنني لو كنتُ رجلًا، لكان منظري مخيفًا بعد ليلتين في العراء، ولطال شعر الذقن بصورة غير عادية! وداهمني إحساس بأنني، بشكل أو بآخر، صورةٌ من صور أهلِ الكهف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أدرتُ مفتاح المذياع باحثة عن إذاعة أخرى: بي بي سي، مونتي كارلو، وبحثت عن إذاعة الرّياض، لم أجدها. لم أكن أعرف أن هناك إذاعة لمدينة جدّة أم لا.

لا شيء، أغان كثيرة، مطربون أقل بؤسًا، ومطربات يُعِدن الأغنيات نفسها، وهيفاء وهبي تُحذِّر حبيبها للمرَّة الألف: (رجب حوش صاحبك عني.. رجب صاحبك جنّني!) ولسبب ما، غامض، تعاطفتُ معها، إذ ليس هناك أكثر سوءًا من شخص يتحرّش بامرأة تحبُّ حتى الجنون!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مررتُ بالبيت، اغتسلتُ بسرعة، وحين خرجتُ، وجدتُ نفسي أقود السيارة باتجاه المطار، لا العمل! حيرني هذا، لكنني واصلتُ! بعد خمس وثلاثين دقيقة كنت أقف محدِّقة في شاشة الرحلات القادمة والمغادرة. كانت الطائرة القادمة من جدّة قد وصلت منذ عشرين دقيقة.

فتحتُ دفتري بمجرّد أن عدتُ إلى السيارة، ورحتُ أفكِّر في السبب الذي دعا دُنْيا لكتابة ذلك التحذير، ما دامت الطائرة قد وصلت بسلام!

نظرتُ حولي، تأكدتُ من أن أحدًا لا ينظر إليّ، كتبت ملاحظة، وخبأت الدَّفتر في جيبٍ سريٍّ داخل حقيبتي. وحين رفعتُ رأسي رأيت عشرات النساء بملابسهن السوداء يجلسن إلى جانبَي ويحدِّقن بي. نهضتُ بسرعة، وانطلقتُ صوب باب الخروج! قبل أن أصله التفتُّ خلْفي، لم يكُنَّ هناك! ولكنني واصلتُ النظر ورائي.

قطعتُ الشارع بسرعة ودون انتباه، كان همّي أن أصل إلى السيارة بأسرع ما أستطيع. لمحتُ السيارة، أسرعت أكثر، وحين اقتربت، رأيتهنَّ ثانية يُحطن بها، لقد كنَّ جالسات، وفجأة نهضن!

تراجعتُ بسرعة، ركضتُ، التفتُّ خلفي، اختفين! وقفتُ. حائرة وخائفة كنت، كان ترْك السيارة في الكراج أمرًا غير وارد. استجمعتُ نفسي، ومشيتُ بخطى حذرة نحوها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17

بهدوء دخلتُ شارعي ذا النهاية المغلقة، كانت هناك حركة غير عادية، أناس يدخلون ويخرجون ورجال شرطة، ورأيتُ زوجة الحارس تلطمُ خدّيها وتبكي بحرقة، وفجأة عمَّ الصَّمت! وكما لو أنني أتابع فيلما غرائبيًا، تجمّد الناس في أماكنهم وهم ينظرون صوبي، ورأيته، بنفسه، ساكن الطابق الأخير، يتقدّم نحوي بغضب. خفتُ، فانطلقتُ صوب الكراج، وسمعتُ سيارتي ترتطم بالجدار، وأحد مصابيحها يتهشّم، لكن الوصول إلى باب المصعد، ثم إلى شقّتي كان الشيء الوحيد الذي يهمّني.

بسرعة أطفأتُ محرّك السيارة، سحبتُ مفتاحها المُعلَّق بحلْقة معدنية مع بقية مفاتيحي، تركتُها مشرعة، وركضتُ؛ لكن محرِّكها واصل لهاثه مثلي! اتّجهتُ إلى المصعد، وحين تبيَّن لي أنه قادم من الطابق الأرضي، قررتُ استخدام الدّرج.

لا أعرف كيف وصلتُ إلى باب شقتي قبْله، لا أعرف كيف أدرتُ المفتاح في القفل؛ لا أعرف كيف تمكَّنتُ من الإفلات من يده الممتدّة نحوي؛ يده التي لامستْني لحظةً؛ لا أعرف كيف تمكّنتُ من إغلاق الباب والحيلولة دون دخوله.

طرقَ الباب بعنف طالبًا مني أن أفتح.

فالتصقتُ بالباب من الداخل، كأنني الباب نفسه.

وطرَقه مرّة أخرى، وسمعت صوته الغريب الذي لم يكن غير خليط عجيب من فحيح وعواء وصهيل وصرير ورغاء وأزيز وهديل وخوار ..، وحين لم يجد جوابًا، خيّل إليَّ أنه ألصق وجهه بالباب وهمس تلك الهمسة المرعبة التي جعلتْ كلَّ ما فيَّ يرتعد.

- ستندمين على هذا كثيرًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مساءً، سمعتُ صوت جرس باب البناية لديّ، كنت قد قبعتُ في الظلمة، منتظرةً خيط ضوء واحد. وقفتُ، وتوجّهتُ إلى الهاتف، رفعتُ السماعة بخوف، وانتظرت؟!

- أنا دُنْيا. افتحي.

- هل أنتِ وحدك؟

- ومَن يمكن أن يكون معي؟! افتحي.

فتحتُ باب البناية؛ ففي النهاية، لم يكن صاحبها مضطرًّا للضغط على زرِّ جرس البناية كي يُشرع له بابها. طويلًا انتظرتُ وصولها الشقة، وأنا أحدّق عبر العين السّحرية للباب.

حين تأكدتُ تمامًا من أن لا أحد يرافقها، فتحتُ الباب، وجررتها من يدها بسرعة، وأغلقتُه بسرعة أكبر.

امتدتْ يدها لمفتاح الضوء، وتجمّدت مكانها غير مصدِّقة ما تراه، كما لو أنني تحوّلت إلى شبح.

- لماذا تفعلين هذا بنفسك وبنا، كيف تختفين هكذا؟! سألتني غاضبةً.

- أنا لم أختفِ!

- تغيبين عن المكتب يومين كاملين، ولم تختفي؟!ما الذي فعلتِه بهاتفك، بنفسك، بنا؟! لقد اتصلتُ بك كلّ خمس دقائق منذ صباح الاثنين.

تذكَّرتُ هاتفي، وتذكرتُ حقيبتي التي تركتُها داخل سيارتي التي سمعتُ محرِّكها يواصل دورانه حتى بعد أن سحبت المفتاح!

قلت لها: هاتفي في السيارة؛ هاتفي في حقيبتي التي في السيارة. وحاولتُ أن أشرح لها، فبدا لي أنها لم تفهم، لأنها لا تريد أن تفهم!

- أعطيني المفتاح، سآتي بالحقيبة.

- السيارة مفتوحة.

- ولماذا تتركين سيارتك مفتوحة؟!

- لقد قلتُ لكِ لماذا تركتها مفتوحة!

- متى؟!

سارت نحو الباب: سآتي بحقيبتك. قالت، وفوجئتُ بنفسي أصرخ قبل أن تلامس يدها أكرة الباب: انتظري.

سبقتُها، أضأتُ اللمبة المثبّتة أمام باب الشّقة، نظرتُ عبر العين السِّحرية، لم يكن هناك أحد. أمسكتُ بيد دُنْيا، فتحتُ الباب ودفعتُها خارجًا، وأقفلتُه بسرعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طويلًا انتظرتُ. لم تعُد، تعبتُ من التّحديق عبر العين السّحرية. حاولتُ أن التقطَ صوت خطوات صاعدة أو هابطة، أو صرير باب أو أنين المصعد في صعوده وهبوطه.

لا شيء.

بعد ساعتين، أفقتُ على صوت الجرس، قفزتُ مذعورة، نظرتُ إلى الخارج، ورأيتُ دُنْيا تقف هناك. فتحتُ الباب بسرعة، جررتها وأقفلته من جديد، كانت دُنْيا التي عادت غير دُنْيا التي ذهبتْ تمامًا! دموعها تحفر خدّيها، نظراتها زائغة، شعر صدْغيها نافر وأكثر سوادًا من أي يوم مضى، ويدها التي تناولني حقيبتي أكثر ارتجافا من صوتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

18

نامت دُنْيا بجانبي تلك الليلة. ورغم كلّ ما أصابني، إلا أنني أحسستُ أن ألمها أكبر، وعذابَ روحها أشدّ.

طوال الليل ظلّت ترتجف، تصرخ، وبين حين وحين ترجو شخصًا ما ألّا يقتلها، وكلما أيقظتُها لأقطع الكابوس، رجتْني: من شان الله يا حياة تزوّجيه. سيقتُلني إن لم تتزوّجيه، لقد قالها لي بوضوح شديد: سأقتلكِ، ستموتين ميتةً لا تتخيلينها، ميتةً ستستمرُّ أيامًا، شهورًا، وقد أجعلها تستمر لسنوات.

طمأنتها: لن يقتلكِ أحد وأنا موجودة!

- أنت لم تعرفيه، سيقتلني، قالها هناك، عندما ذهبتُ إلى السيارة ووجدته ينتظرك فيها، أو ربما ينتظرني، ينتظرني بالتأكيد لأنّه قال لي: لماذا تأخرتِ إلى هذا الحد؟! ثم اقتادني إلى الطابق الأخير، لم يشعل الضوء، وهيئ لي أنني دستُ على أفعى، وسمعت فحيحًا، وأحسستُ بها تضرب ساقي بذيلها وتبتعد. قال لي: سأتركِ هنا، إلى أن تموتي، سأتركِ هنا في العتمة. لا، هنا ستموتين بسرعة، ستلدغك الأفعى. سأضعك في مكان خال وأبتكر لكِ ميتةً لا تتخيّلينها.

حاولتُ تهدئتها، أنا التي كنت أرزح تحت خوف يتصاعدُ أكثر فأكثر.

وقال لي: إذا لم تقبل الزّواج بي، فسأذيقها العذاب، عذابًا يستمر طوال حياتها. وألقى بي داخل غرفة وأغلق الباب، ثم عاد وفتحه، وقال لي: إذا لم تقنعيها بالزّواج مني، فستندم، وقولي لها: إنه يحذِّرك من أن تكتبي شيئًا، وتحدَّث عن دفتر صغير وجده في حقيبتكِ؛ قال إنه أحرقه وذرى رماده في الهواء، وهو يأمل ألا يفعل بك الشيء نفسه!

بكيتُ، بكيتُ الدّفتر، وكل ذلك الانتباه الذي خبأته فيه.

- أمامها يومان، لكي تغير رأيها، وإلّا ستندم.

صرختُ: لن أتزوّجه تحت أيّ ظرف، حتى لو قتلَني الآن، في هذه اللحظة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح، أيقظتني دُنْيا، وقالتْ لي: علينا أن نذهب إلى العمل!

- أيّ عمل؟ سيكون هناك في انتظارنا، في الكراج!

- لن يكون. لقد ترك لي أمرَ إقناعك بهدوء، وقال إنه لن يتدخّل قبل يوم الجمعة، هل نسيتِ؟!

نهضتُ، استحممتُ بسرعة، ولبستُ أول ما صادفني من ثياب؛ واكتفتْ هي بغسل وجهها، وتمشيط شعرها بأصابعها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان فتْحُ الباب أشبه ما يكون بفتح باب قبر، وإلقاء المرء بنفسه فيه.

أمسكتُ بيد دُنْيا وأنا التصق بها أكثر فأكثر.

طمأنتْني، فازدادَ خوفي.

احترتُ، هل نهبط الدرج أم نستخدم المصعد؟ هبطنا الدرج.

كانت السيارة متوقّفة في المكان الذي أُوقِفها فيه عادة، أبوابها مغلقة.

بسرعة فتحتُ الباب ثم أغلقته، وأنا أستحثُّ دُنْيا أن تتحرّك بسرعة أكبر.

حين جلستْ بجانبي، أغلقتُ قفل السيارة بإحكام، وأدرتُ المحرك، وأنا أتطلع للوصول إلى مساحة الضوء الكبيرة التي تغمر باب الكراج.

قلتُ لدُنْيا: سأنزلك بجانب سيارتك، وتلحقين بي. فقالت لي: لقد أخذ السيارة مني ليلة أمس، وقال لي إنه لن يعيدها قبل أن أقنعكِ.

- وهل هي سيارة أبيه ليأخذها؟ إنها سيارتك.

صمتتْ دُنْيا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

موضوع واحد كان يشغلها، هو زواجي منه، ولذا، لم تعد تذهب إلى بيتها. كانت تريد أن تكون على ثقة من أنني لن أذهب لاستقبال أنَس، وأنّ أمر زواجي منه قد انتهى، وحاولتْ تبسيط الأمر: تخيّلي أنه لم يدخل مكتبنا في ذلك اليوم؛ تخيّلي أنه ابتعد وأنك لم تريه بعد ذلك.

رفضتُ.

فأسرّت لي، محذِّرَةً ربما، أن ساكن الطابق الأخير هو من رتّب سفره إلى مكة ليبعده عنكِ، ولإعطائك فرصة للعودة إلى عقلك!

جننتُ: ومن يعتقد نفسه؟! وكيف استطاع أن يتدَّخل في أمر كهذا؟ كيف أقنع البنك باختيار أنَس دون سواه؟!

- قلتُ لك، إنه يستطيع أن يفعل ما لا تتخيّلينه.

رفضتُ.

فقالت لي: ستخسرين! لا أحد باستطاعته أن يخوض حربًا معه، لا أحد. وتأكّدي أنكِ بعنادك توقّعين على وثيقة إعدامي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

19

صحوةٌ خاطفة عبرتْ رأسي بسرعة، أمسكتُ بطرفها قبل أن تختفي تمامًا!

نهضتُ، التفتُّ إلى دُنْيا، التقتْ أعيننا، وقبل أن أخطو خطوتي الأولى نحو الباب، صرختْ بي: أرجوكِ لا تفعلي ذلك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بكلمات غير مترابطة رحتُ أشرح لضابط الأمن كلّ شيء دفعة واحدة، وهو لا يكفُّ عن ترديد ذلك الرجاء: أرجوكِ.. اهدئي وتحدّثي ببطء!

كنت أقول كل شيء كما لو أنني غيمة انفجرت فأنزلت كل ما في جوفها دفعة واحدة.

هل تنتهي حياة الغيمة حين تفعل ذلك، أم تبدأ؟!

لم تعد تهمّني النتائج!

بعد مرور زمن طويل هدأتُ، فسمعتُه يقول لي: لا عليكِ، لقد سجَّلتُ العنوان، إنه واضح، بل واضح تمامًا، وسأتابع قضيتكِ بنفسي.

حين نهضتُ، سار معي حتى أوصلني إلى سيارتي، دون أن تفارق الابتسامة وجهه الحليق. فتح لي بابها بلطف شديد، وحين تأكَّد من أنني جلستُ خلف المقود سألني: يمكنك أن تقودي السيارة دون مشاكل، أليس كذلك؟!

أشرتُ له برأسي مؤكِّدة سؤاله.

- مع السلامة، قال لي. وابتسم، وكم أفزعني أنني رأيتُ للحظة في وجهه وجهَ إدريس!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عدتُ إلى شقّتي، وما إن وصلتُ إلى أول الشارع ذي النهاية المغلقة، حتى رأيت دُنْيا. لم يكن صعبًا عليَّ أن أعرف أنها كانت تنتظرني. حين رأتْني مُقْبلةً راحت تركض نحو السيارة كالمجنونة، ارتبكتُ، ضغطتُ على دواسة الكوابح بسرعة، ورأيت دُنْيا تطير في الهواء وتسقط فوق غطاء المحرّك، وسمعتُ ارتطام رأسها بالزّجاج أمامي!

بصعوبة استطعتُ فتْح عيني، كنت على يقين من أنني قتلتُها، وأن دمها سيغطي العالم أمامي إلى الأبد.

لم أرها، صرختُ، كنت علي يقين بأنني سحقتُها. برعب رحتُ أبحث عن يد الباب بجانبي، وجدتها، دفعتُ الباب، وقبل أن تلمس قدمي الأرض، سمعتُ

باب السيارة المقابل لي يُفتح، ورأيتها تنحشر في المقعد، وتضع حزام الأمان، حتى قبل أن أطلب منها ذلك!

- ابتعدي من هنا، أمرتْني. ابتعدي بسرعة.

بصعوبة تمكّنتُ من التقاط الكميّة الكافية لي من الهواء كي أتنفس. عدتُ إلى مكاني خلف المقود، وقدتُ السيارة للخلف.

- ثبّتي حزام الأمان، قالت لي شبه صارخة!

أطعتُها!

وصلتُ إلى أول الشارع، استطعت تعديل وضع السيارة، وقدْتُها مبتعدة.

بعد فترة من الوقت، نظرتُ نحو دُنْيا، متوقّعةً أن تقول شيئا ما، لكنها ظلت صامتة. طلبتُ منها أن تتحدّث، أن تقول شيئا، أي شيء. ظلّت صامتة. حين وصلتُ إلى نهاية شارع المدينة الطبيَّة، قرب منطقة صويلح، أعطيت إشارة إلى اليسار، كي أعود. التفتُّ نحوها لأعرف رأيها في ذلك، فأشارت بإبهام يدها اليمنى مُحذِّرة: لا!

واصلتُ طريقي نحو (صوْيْلِح)، فـ (البَقْعَة)، صعودًا باتجاه مدينة جرَش.

امتدَّت يدها وربَّتتْ على فخذي الأيمن وأشارت إلى الخلف، ففهمتُ أنها تسمح لي بالعودة.

في المنطقة المُطلَّة على سدِّ الملك طلال أوقفتُ السيارة، لم أستطع المواصلة، كنت أريد أن أسمعها تقول شيئا ما، أن تُقدِّم لي سببًا واحدًا لكل ما حدث منذ أن ألقتْ بنفسها على السيارة.

لم تستطع نُطْق كلمة واحدة، كانت أشبه بزرافة لا يستطيع صوتها الوصول إلى حنجرتها. كانت تبذل جهدًا غير عادي لتقول شيئا، وكلما حاولت أكثر، بدتْ كشخص على وشك الاختناق!

كان عليَّ أن ألعب دورًا غير معدٍّ لي، أن أطلب منها أن تهدأ، أنا التي كنت أتفجّر مثل حفنة من الذّرة في مقلاة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل أن نصل بداية الشارع ذي النهاية المغلقة، سمعتُها تقول: أنزليني هنا! لم أتوقّف. صرخت: أنزليني هنا!

أوقفتُ السيارة وأنزلتها.

لم أتحرّك.

فأشارت إليَّ أن أواصل.

قدتُ السيارة ببطء، كنت خائفة، وسقط قلبي حين سمعتُ طرْقًا قويًّا على صندوقها، استدرتُ، كانت دُنْيا تطرقه بقوة. توقّفتُ.

اقتربت من النافذة المجاورة لي، تلفتتْ حولها، ثم انحنتْ وهمستْ لي: ألم أقل لك.. أرجوك لا تفعلي ذلك؟! وابتعدتْ في الاتجاه المعاكس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتظرتُ طوال يوم الخميس أن يتّصل بي ذلك الضابط اللطيف، لكنه لم يفعل، اتصلتُ بالمخفر عشر مرات على الأقل، لكن أحدًا لم يجب؛ في النهاية وجدتُ نفسي مضطرّة للذهاب بنفسي إلى هناك.

أوقفتُ السيارة أمام المخفر، ترجّلتُ منها. كان الصمت وحده هناك؛ وأثار استغرابي أن الشارع كان يخلو تمامًا من السيارات. نظرتُ إلى بوابة المخفر، لم يكن هنالك أي حراس! سرتُ بحذر أتلفّتُ حولي، صعدتُ الدرجات القليلة المؤدية إلى باب المبنى، لم أر أحدًا.

لم يكن صعبًا عليَّ أن أتذكر المكتب الذي رأيت فيه الضابط، فقد انتظرت طويلا في ممرِّه قبل أن يُدخلوني إليه.

سرتُ في الممرّ، كان مضاء على نحو مبالغ فيه. رأيتُ الكرسي الطويل الذي جلستُ عليه في المرة الأولى. نظرتُ خلفي، لم أر أحدًا، فأحسستُ أن الشيء الأكثر قدرة على بثّ الخوف من مخفر ممتلئ برجال الأمن هو المخفر الذي لا ترى فيه أحدًا منهم!

انتظرتُ عشر دقائق، دون أن ألمح أحدًا، كانت الإضاءة الساطعة تزدادُ سطوعًا. في النهاية كان لا بدّ من أن يحدث شيء، نهضتُ، وتوجهتُ مباشرة نحو مكتب الضابط، دون إذن من أحد. كان الباب مغلقًا؛ دفعته بخوف، فلم أجد هناك سوى الفراغ! تقدّمتُ نحو مكتبه والضوء يواصل سطوعه، لمحتُ ورقة فوق المكتب، في منتصف المكتب، ولا شيء سواها؛ اقتربتُ منها، فوجئتُ، كانت مطوية، اقتربتُ أكثر، فرأيت اسمي مكتوبًا بخط أنيق وواضح: لعناية الآنسة حياة.

مددتُ يدي وأنا أتلفّتُ حولي خائفة، خائفة من أن يُطلَّ أحدهم ويصرخ بي: ماذا تفعلين هنا؟! وخائفة من اختفاء الورقة.

لم يظهر أحد ولم تختفِ الورقة!

تناولتها، وبسطتها أمام عينَي، كانت هنالك جملة واحدة لا غير: آنسة حياة، يؤسفني أن أخبركِ أن العنوان الذي أعطيتِنا إياه لم يكن صحيحًا أبدًا! نرجوك

لا تكرِّري هذا الفعل مرّة أخرى!

ملاحظة: أعيدي الورقة إلى مكانها ولا تعودي إلى هنا ثانية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غادرتُ المبنى كما دخلته، الصمت في كل مكان، ولا أحد.

فتحتُ باب السيارة، أدرتُ المحرِّك. "عنوان غير صحيح! كيف؟!"

وانتابني حسّ عميق بأنني لا أعرف إلى أين سأمضي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

20

في التاسعة من صباح ذلك الجمعة، السادس والعشرين من شهر كانون الأول وصلتُ المطار، نصفُ جسدي العلوي يكاد يختفي خلفَ باقة وِرْد اخترتها بعناية. عيناي استقرتا هناك على مدخل خروج المسافرين. رجال ونساء وأطفال يخرجون، وقبل أن يلامسوا بأقدامهم ذلك الخط الوهميّ الذي يفصلهم عن قاعة المسافرين، كانت طفلة أو طفل أو شابة أو شيخ يقفزون نحو مَن ينتظرونه، وقد تحوّلوا إلى طيور!

ضبّاط المطار وحرّاسه، لم يزجروا أحدًا، وهذا ما بعث الراحة فيّ، قلت: إذا ما فاض بي الشوق مثلهم، فسأقفز نحوه وليكن ما يكون.

بعد ربع ساعة غدتْ باقة الورد مزعجة، وهيئ لي فجأة أنها تحجبه عني، وانتابني شعور بأنه قد يكون خرج دون أن أراه بسبب هذه الباقة التي غدتْ فجأةً بلهاء!

شعرتُ بحكّة في خدِّي الأيمن، فركْتُه، حين نظرتُ إلى إبهامي رأيت بقعة دم، عدتُ وتحسستُ خدّي برفق، فخيِّل إلي أنني تلمستُ شَعرًا ناعمًا. تلفتُّ حولي باحثة عن مرآة، لم أجد.

وانتظرتُ..

لم يخرج.

حاولتُ الاتصال به. كان الخطّ ينبِض للحظة ثم ينقطع.

انتظرتُ أكثر، إلى أن وجدتُ أن عليّ الاتصال بدُنْيا.

بسرعة شرحتُ لها ما يحدث معي، فقالت: حاضر! سأتصل بك بعد قليل.

وضعتُ باقة الورد على أحد مقاعد الانتظار وتوجّهت للضابط أمام الباب وسألته: هل بقي مسافرون من القادمين على طائرة جدّة في الدّاخل؟

- لا أظنّ ذلك. وحدّق في ساعته، وأضاف: الرّكاب الذين ترينهم الآن وصلوا من كالكوتا. وصمتَ قليلا: هل لمن تنتظرينه أيّ مشكلات مع الحكومة؟!

هززتُ رأسي نافية ذلك.

كنت حائرة وعلى وشك البكاء عندما سمعتُه يقول: استريحي قليلا، سأُرسلُ من يسأل إن بقيَ أحد من ركاب طائرة جدّة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل أن يأتي الجواب من الداخل، رفعتُ الهاتف ونظرتُ إليه؛ تأكّدتُ من أن البطارية مشحونة، وتأكدتُ من أن شارة البثّ جيدة، كما لو أن دُنْيا لم تجب قبل قليل.

كنت متردِّدة بين أن أبقيه في يدي أو أن أعيده للحقيبة الصغيرة، حين جاءت مكالمة دُنْيا: لم يكن ضمن ركاب هذه الرّحلة، لسبب ما تأخّر عن موعد إقلاع الطائرة!

- ولكنه اتّصل بي ليلة أمس وأخبرني أنه قادم. سأتّصل بك بعد قليل.

كان الضابط يقترب مني مبتسما بيأس هازًّا رأسه: للأسف!

شكرتُه، وتوجّهت نحو باقة الورد، ولسبب ما، انقبض قلبي، فتركتُها مكانها وابتعدت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أُشرعتِ البوابة الإلكترونية لقاعة الاستقبال، وما إن خطوت خارجها، حتى فاجأني ذلك العدد الكبير من النساء لابساتِ السواد!

تجمَّدت للحظات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عبثا ذهبتْ كلّ محاولات اتصالي به، لا جواب، ولا حتى أيّ رنين على الطرف الآخر. تكةٌ صغيرة، ثم الصمت، الصمت وحده، الصمت الفارغ الشاسع كصحراء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

درتُ في مكاني غير قادرة على أن أفعل أيّ شيء، إذ لم أكن أعرف أي هاتف يمكن أن يوصلني بصديق له، بأخت أو أمّ أو أب.

سرتُ نحو الكراج، وللحظة أحسست بأن هناك من يتبعني، التفتُّ، كان حفيف الأثواب السوداء هو الصوت الوحيد خلْفي، ذلك الحشد الهائل من النسوة!

تسارعت خطواتي، ألقيتُ بنفسي داخل السيارة، قدتُها بجنون، وبدل أن أصل إلى ذلك الجسر لأنعطف يمينا باتجاه عمّان، اكتشفت أنني ضائعة في متاهة تلك الطرق الفرعية الصغيرة البديلة التي تخترق المباني الجديدة لمشروع توسعة المطار.

لا أعرف كيف عدتُ ثانية إلى قاعة القادمين.

انطلقتُ نحو المَخرج.

حينما رأيت نقطة التفتيش الواقعة على مسافة مئات قليلة من الأمتار عن المطار، تأكّد لي أنني خرجتُ.

بعد أن تجاوزتها، امتدَّت يدي لحقيبتي وأخرجتُ الهاتف واتّصلت بدُنْيا من جديد، لكنها لم تجب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم يتّصل أنَس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صباح السبت، أيقظتني رنّة هاتفي التي لم تكن غير مقطع من أغنية ميادة: (حبيبي يا أنا.. يا أغلى من عنيّا.. نسيت مين أنا!)، فاندفعتُ كالمجنونة، متوقِّعة أنه هو. جاءني الصوت من الجهة الأخرى: الأخت حياة!

بخوف أجبتُ: الأختُ حياة!

- لقد أمضينا الليل ونحن نبحثُ عن رقم نتّصل به، إلى أن وجدنا رقمك بصعوبة، ولأنه آخر رقم اتصل به، فنحن نتحدّث معك.

- ما الذي حدث؟! سألتُ برعب، واكتشفتُ أنني كنت أبكي.

- لا تؤاخذيني، ما هي صلتكِ بالسيد أنَس؟

- خطيبي، إنه خطيبي!

- يؤسفني أن أخبرك أن السيارة التي كانت تقلُّ السيد أنَس انقلبتْ وتحطَّمت بسبب سيول يوم أمس التي فاجأت منطقة جدّة، البقية في حياتك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اللعنة

أناس لا يعلمونَ ما يفعلون وهم يقْظى،

تماماً كما ينسونَ ما يفعلونَ وهُمْ نيام!

هرقليطس

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1

غامضًا ظلَّ موت أنَس، كجثته التي لم أعرف أين دفنوها. في الأيام التالية لم تفارقني دُنْيا، كانت تبكي بكاء حارًا، شديدًا، بكاء لم أر مثله، ولم أفهمه، كما لو أنها هي التي فقدتْه ولستُ أنا.

كان لديَّ همٌّ فأصبحتُ في اثنين! رحتُ أواسيها دون جدوى، بل وعرضتُ عليها أن آخذها في مشوار، لعلّها تنسى وتُريحني!

ليسوا أقل من كارثة هؤلاء الذين يبكون أكثر منك يوم موت أحبائك!

رفضتْ الخروج، رفضتْ العودة إلى العمل، وبتُّ على يقين من أننا سنُفصَل من العمل، كلتانا.

أما الشيء الغريب، فهو أنني نسيت تمامًا أمر ساكن الطابق الأخير، وقلت: لعله نفسه يحاول أن يتفادى اللقاء بي خلال أيامي العصيبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في النهاية، كان لا بدَّ من أن نغسل وجهينا ونمضي إلى عملنا كي لا نموت جوعًا! وكنا أوشكنا على ذلك، حين لم ننتبه أننا لم نأكل ولم نشرب ثلاثة أيام متواصلة!

في اليوم الرابع، كان لا بدّ من أن نعود إلى العمل.

بعد أن خرجنا بسيارتي من عتمة الكراج، وأصبحنا تحت الضوء، رأيتُ للمرّة الأولى ما لم أره، كانت البثور قد اختفت تقريبا من وجه دُنْيا! وكذلك الشَّعر على صدغيها! تذكّرتُ أنني لم أر وجهي في المرآة منذ عودتي من المطار، ارتفعتْ يدي رغما عني وتحسستُ خدَّي، كانت أصابعي تصعد وتهبط وملمس الشّعر الناعم قاتل! لكنني لم أجرؤ على حكِّ أي بَثْرَةٍ، انتابني حسٌّ بأنني لو فعلت ذلك لعادت يدي إليّ ملطخة بالدماء!

خلتُ أن أحدًا في المكتب، لم يلحظ حضوري، حين دخلنا، وحين غادرنا، بل لا أتذكّر إن كنتُ، أنا على الأقل، قد قمتُ بحجز أيّ موعد سفر لأيٍّ من زبائننا.

كلّ ما حدث، أن زبونا واحدًا جاء وجلس على الكرسي المحاذي لمكتب دُنْيا، وكان حريصًا، أو هكذا أحسستُ، على أن يُدير ظهره إليّ، ناولها ورقة، تأمَّلتْها وكتبتْ فيها شيئًا ما، ثم رأيته يخرج.

حين حاذى مكتبي، تبيَّن لي أنه لم يكن حريصًا على إخفاء وجهه، إذ وقف أمامي وألقى تحيّة الصباح، وسألني عما إذا كنت مرتاحة في عملي، إن شاء الله! وفي بيتي، إن شاء الله! فراودتني رغبة أن أقف وألقى به إلى الخارج؛ إذ

كيف يتجرّأ على طرح كل هذه الأسئلة عليَّ؛ وقبل أن أفعل، تذكرتُ أنه إدريس وكيل صاحب البناية ومحاميه.

تركني معلَّقة في حَيرتي وابتعد.

التفتُّ إلى دُنْيا، وجدتها مشغولة بكتابة شيء ما بفرح.

قلت: لعل إدريس يريد أن يُهاجر، ويُهاجر معه صاحب البناية، وتمنيتُ أن تنهار مشاريعه، مع انهيار الاقتصاد العالمي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمضيتُ اليوم أحدِّق في وجهها، لكنني لم أجرؤ على الذهاب إلى الحمّام لأتأكد مما حدث لي! مما يحدث لي!

عند انتهاء الدّوام، غادرنا المكتب سويًّا وأنا أسترق النظر إليها. كنت أتوقّع أن دُنْيا ستودِّعني وتذهب إلى بيتها، كان ذلك سيريحني، لكني فوجئتُ بها تسير معي. خجلتُ من أن أسألها: ألن تذهبي إلى بيتك؟! وسمعتها تقول لي: لا، سأذهبُ معكِ! وأخبرتني أنها منذ اليوم ستأتي معي وستعود معي. استغربتُ الأمر، وكنتُ على وشك أن أسألها: وبيتكِ؟! فقالت لي: في هذه المحنة لن أتركَكِ وحيدة، ولذا استأجرتُ اليوم شقة في بناية الفردوس.

- كان وكيله في المكتب لهذا السبب؟!

- نعم، لهذا السبب.

صمتُّ، فقد كان الشيء الوحيد غير اللائق، هو أن أصرخ في وجهها، لمجرد أنها تريد أن تقف إلى جانبي وتواسيني!

عند باب البناية، قالت: أنزليني هنا. أنزلتُها، وواصلتُ طريقي نحو الكراج.

توقعتُ أن تأتي وتطرُق بابي بعد عشر دقائق، بعد ساعة، ساعتين، لكنها لم تفعل.

ضايقني الصّمت، أطبق عليّ، كنتُ أريد أن أبدِّده بأي طريقة، فلم أجد أفضل من التلفزيون وسيلة لذلك، مثلي مثل كثيرين من خلق الله في هذه المعمورة. وكم شعرتُ أنني محظوظة، حين رأيت عبارة (Next) واسم الفيلم تحتها (Natural Born Killers) (قتلة بالفطرة)، فتساءلت كيف يمكن أن يولَدوا قتلةً بالفطرة؟! شيء ما شدّني للعنوان، وكذلك فرصة مشاهدته من أوله، حيث لم أستطع يومًا متابعة فيلم بدأ عرضه؛ كلّ ثانية في الفيلم، أيّ فيلم، تعني لي الكثير.

بعد انتهاء ذلك الفيلم الدّامي بكلِّ ما تعنيه الكلمة؛ الفيلم الذي كان لا بدّ منه في الحقيقة، لي، لتفريغ شحنات الغضب التي تملأني، سألتُ نفسي ذلك السؤال الغريب: إذا كان ميكي وصديقته مالوري قتلة بالفطرة، فهل يمكن أن نقول إن البشر الذين كانوا يحتفون بهما في كلّ مكان، ويخرجون للقائهما حاملين يافطات كتب عليها (أقتلني ميكي!)، هل يكون هؤلاء البشر ضحايا بالفطرة؟! وانشغلتُ إلى ذلك الحدّ الذي بتُّ معه على يقين من أن عنوان الفيلم الأكثر دلالة هو: (ضحايا بالفطرة) أو (قتلى بالفطرة). ولو كنت من نقاد السينما لكتبتُ عن هذه القضية بالذات، إذ لا يمكن أن يكون هناك قتلة بالفطرة لو لم يكن هناك قَتْلى بالفطرة، وبما أن عدد القاتلين في الفيلم اثنان، هذا إذا ما استثنيا الصّحفي المهووس بهما، والذي يتحوّل إلى ضحية لهما في النهاية، فإن الفيلم يجب أن يحمل اسم الشريحة الأكبر التي تملأه، وهم الناس الذين يتمنّون أن يكونوا قتلى على يد ميكي ومالوري.

حين وضعتُ رأسي على المخدة، اكتشفتُ أن تفكيري في اسم الفيلم لم يأت من فراغ، بل من أعمق ما فيَّ من أحزان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت هناك هدنة بيني وبين قاسم،

هدنة غير معلنة،

هدنه منحني إياها ربما تفضّلًا، كي أستطيع لملمةَ جراحي، أو كي يبتكر لي ميتةً تليق بغضبه كما هددني، لكنني كنتُ على يقين من أن الهدنة ستنتهي يومًا ما، وعندما تنتهي، لن أقبل ثانية بأن أكون قتيلة بالفِطرة. نعم، لن أقبل، ولن أهتف له مثل تلك الجموع المتماوتة: أقتلني قاسم!

وقررتُ: لن يسمع مني بعد اليوم سوى كلمة واحدة هي: لا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

في الصباح، تذكّرتُ دُنْيا، تذكّرتُ أنني لم أرها، منذ أن غادرتْ السيارة، وتذكرتُ أنني اتخذتُ قرارًا كبيرًا بأن أقول: لا.

لم يكن يلزمني دفتر لأدِّون فيه قرارَ تمرُّدي!

لكن الغريب أن الوقوف أمام المرآة لم يخطر ببالي أبدًا!

بعد عشر دقائق من الانتظار، بدا لي أنني سأتأخّر إذا ما انتظرتها أكثر، قررتُ التحرُّك. وما إن غادرتُ باب الكراج، ما إن غادرتُ العالم السّفلي للبناية، حتى أحسستُ بالضوء يغمر كلَّ شيء حولي. لحظتها، لم أعرف إن كنت نسيت الوقوف أمام المرآة فعلا، أم أنني تناسيتُها لأنني بتُّ فزِعَةً من ذلك الوجه الذي سأراه فيها!

نظرتُ عبر مرآتي للشارع خلْفي، فقد تطلُّ دُنْيا من بوابة البناية في أيّ لحظة.

وصلتُ نهاية الشارع، لم تظهر، وانعطفتُ يمينًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما دخلتُ المكتب، فوجئتُ بدُنْيا تجلس خلف طاولتها منشغِلة بمكالمة هاتفية؛ وللحظة، أحسستُ كم أصبحتْ هذه الدُّنيا تُشبهني! ولكي أطرد مخاوفي، أعدتُ الأمر إلى أن أيًّا منا لم تعد تفارق الأخرى، وتذكرتُ شيئًا عن الأزواج الذين يُصبِحون متشابهين في نهاية حياتهم، وكيف تغدو ملامحهم واحِدة، وطريقة تعبيرهم واحدة؛ لكنني شككتُ في هذه الظاهرة، حين تذكَّرت الممثل مايكل دوغلاس وزوجته الفاتنة كاترين زيتا جونز، وقلت لا يمكن أن يكونا في النهاية، عندما يشيخان، مثل حبةِ فولٍ انقسمت نصفين، أيّا كان حجم انسجامهما!

حين أنهتْ دُنْيا المكالمة، قلت لها: لقد انتظرتكِ، انتظرتكِ طويلا! كيف وصلتِ إلى هنا؟!

- لقد أوصلني بنفسه! ردّت بهدوء، ولم أَخفْ من جوابها بقدر ما أخافني اكتشافي أن صوتها قد أصبح قريبًا إلى حدّ بعيد من صوتي!

- لكني سأعود معك. فهو مشغول في فترة ما بعد الظهر!

اكتفيتُ بصمتي، لم أكلِّمْها، ولم أسمع إلّا أصوات الهواتف وكلمات البشر التي تأتي عبرها، طالبةً منا أن نُسهِّل رحيلهم إلى أمكنة مختلفة في هذا العالم.

في طريق العودة، أسرَّتْ لي: ليلة أمس قال لي إن صاحبتكِ أفسدتِ الأمرَ كلّه! وإنني لم أعد معنيًّا بها، وإنني أفكر لها بشيء مختلف! وسألتْني: ما الذي فعلتِه أمس لكي تدفعيه للوصول إلى هذه النتيجة؟!

هززتُ رأسي محاوِلةً أن أتذكَّر: كلُّ ما في الأمر أنني جلستُ في انتظارك، وحين تأخّرتِ شاهدتُ فيلمًا. وحدَّثتُها عن العنوان الذي اخترته له. فجأة رأيتها تصرخ: أوقفي السيارة، أوقفي السيارة!

خشيتُ أن أكون دعسْتُ قطًّا أو كلبًا، أو أنني على وشك الوقوع في حفرة. أوقفتُ السيارة بسرعة، ونظرتُ إليها، فرأيتُني!:

- شو في؟!

- ليلة أمس كان يشاهد الفيلم، نفس الفيلم، قالت، وعند انتهائه سألني: هل رأيتِ كيف كان الناس يتظاهرون طالبين من بطل الفيلم أن يقتلهم؟!

قلت له: رأيت!

فقال: هؤلاء هم البشر الذين يستحقّون الحياة، هؤلاء هم الصَّالحون!

ثم التفتَ إليّ وقال: ليسوا كصاحبتكِ التي تجلس الآن في الطابق الثاني، في أسفل البناية باحثة عن عنوان جديد للفيلم!

سألته: وكيف عرفتَ أنها تشاهد الفيلم. فالتفتَ إليّ، وقال: كلمة أخرى وأُلقي بكِ، مثلها، في الحضيض!

- وما الذي جعلكِ تمضين الليل هناك؟! وأشرتُ إلى الأعلى.

لم تُجب. قالت لي: ما يُقلقني أنه أمضى الليل يفكِّر، وفي الصباح قال لي: سأوصلكِ اليوم، اليوم فقط، لكن، ومنذ الآن، لكِ حكايتكِ الخاصة، ولها حكايتها الخاصة!

- لم أفهم. قلتُ له.

- لقد تغيَّرتْ شروط اللعبة، منذ اللحظة التي قررتْ فيها صاحبتكِ أن تتمرّد. كان عليها أن تقبل بما قُدِّم إليها، لكنها ستدفع الثمن لأنها أفسدتِ الأمر كلّه.

سألته: أيّ أمر؟!

وخلتُ أنني سمعته يهمس لنفسه: كان علّي أن لا أقبل بوجودي طرفًا في لعبة كهذه، كان عليَّ أن أبقى خارجها. ولكن، لا أحد يستطيع أن يفلتَ من لعنة الوحدة، لا أحد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

3

بعد سبعة أيام من ملاحظتي لذلك الشبه بيني وبين دُنْيا، وقفتُ أمام المرآة، وكما لو أنني تلقيتُ لكمة صاعقة أتتْ من جوفها، وجدتُ نفسي ملقاة على الأرض. بصعوبة نهضتُ، وحين رأيتُ ذلك الوجه في المرآة ثانية تلقيتُ لكمة أخرى أشدّ!

أحسستُ أنّ عليَّ أن أقاتل. نهضتُ، وفي اللحظة الأخيرة تذكرتُ أنني سأخسر يدي دون أن أستردّ وجهي، فمَن ذلك الذي يستطيع أن ينتصر على المرآة في النهاية؟!

لولا تلك الفروق الصغيرة بين قامتي وقامتها، لحسبتُ أنها هي التي تسكن شقّتي، ولستُ أنا. كان الشَّعرُ يُغطي صدغَي، والبثورُ بشْرتي، أكثر من أي يوم، أكثر من أمس بكثير! حاولت تحسُّس وجهي لكن يدي كانت ترتجف، إذ لم يسبق لي أن تحسّستُ وجه امرأة أخرى من قبل! صحيح أن أمر احتلال ملامحها لوجهي وسرقتها لملامحي لم يحدُثا بين يوم وليلة، لكن، يبدو أن الليلة الفائتة قد شهدت المرحلة الأخيرة من هذا السّطو!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرجتُ من الشقّة، وكلّي شكٌّ في كونها شقّتي، وفي كونيَ أنا! سرتُ مراقِبةً خطواتي، طريقة سيري، ونظرتُ إلى يدَيّ.

عندما أُشرع باب المصعد، وجدتْني هناك في انتظاري! وجدتها هناك في انتظاري على غير عادتها!

كانت تبتسم ابتسامتي، ملامحي كلّها انتقلت إلى وجهها، وإذا ما أردتُ أن أستخدم لغة الكمبيوتر فسأقول: Copy ثم Paste.

طويلا وقفتُ أمامها، غير قادرة على معرفة الخطوة التالية، هل أصرخ؟! هل أبكي؟! هل أتقدّم نحوها وأقتلها؟! لكنني أحسستُ بأنني إذا ما فعلتُ ذلك، فقد أقتل نفسي دون أن أدري! لأن كلَّ ما في الأمر أنني أتخيّل!

نظرتُ إلى سيارتي، لم أعرف، إن كان عليَّ أن أقودها أنا أم تقودها هي؟! لم تمْهلني، قالت مستخدمةً صوتي: أعطيني المفتاح! وفوجئتُ بها تسبقني، وتصعد خلف المقود، تدير المحرّك، وتُعدِّل المرآة أمامها!

كنت لم أزل واقفةً في مكاني مثل لوح من الجليد.

أشارتْ إليَّ بسبابتها دون أن تكفّ عن الابتسام، أن أصعد! سرتُ كالمنوَّمة، وجلستُ في الكرسيّ المحاذي لها. طلبتْ منّي أن أضع حزام الأمان،

فتذكرتُ أنني لم أكن أكفّ عن طلب ذلك منها في كلِّ مرة صعدتْ فيها السّيارة إلى جانبي.

وضعتُ حزام الأمان، فانطلقتْ بسرعة، مخلّفةً صدى مدَمِّرًا. وقبل أن تصل الباب الخارجي للكراج كانت رائحة احتراق العجلات تملأ صدري، وفجأة رأيت السيارة تطير وتنعطف في الهواء، نعم في الهواء، قبل أن تأخذ مسارها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن فَرِحَةً مثلما كانت في ذلك اليوم، وبدا لي أنها مستعدّة لدفع عشر مخالفات سرعة قبل وصولنا إلى المكتب، لأنها لم تكن على استعداد لكبح جماح فرحتها!

التفتُّ إليها وسألتها: ألم تلاحظي، بعد، ما الذي فعلتِه بي، أَلا تحسّين ببعض النّدم؟!

- هذه لحظة لا يمكن أن أفكِّر فيها بالنّدم، إنني أولد الآن، والذي يولد لا يبدأ حياته بالندم، يبدأها بالصراخ. وراحت تصرخ بكل ما فيها من قوّة، واستدارت إليّ متعمِّدة أن تُريني وجهها الجديد، كأنني لا أعرفه!

وفكرتُ: من قال إن صراخ الأطفال لحظة ميلادهم مثل أيّ صراخ فيما بعد؟! من قال إن بكاءهم مثل أيّ بكاء؟!

- لستِ نادمة إذًا؟

- هل تعتقدين أنني مجنونة لأندم، ثم ما الذي فعلتُه لأندم، لقد صحوتُ ووجدتُ نفسي قد اكتملت، فلماذا أندم؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين وصلنا المكتب، ترجَّلتْ بخفَّة فتاة في الثامنة عشرة من عمرها، وسبقتْني إلى الباب، فتحتْه، ومضتْ نحو مكتبي وجلستْ.

عرفتُ أنّ عليَّ المُضيَّ إلى مكتبها والجلوس خلْفه، بعيدًا عن أيِّ شجار لن يُفهم. الصّمتُ كان السيّد في ذلك اليوم، وخُيِّل إليَّ أننا كنا نتكلّم دون أن نكون مضّطرين لفتح أفواهنا، وأن الهواتف لم تكن ترنّ، وأن الزبائن دخلوا صامتين وخرجوا صامتين، وكل منهم يعرف وجهته منذ زمن طويل، إلّا أنا!

بين حين وحين، كنتُ أختلس النظر إليها: ضحكاتها كانت تدورُ في الهواء مثل أزيز نحلة، ويدها ترتفع دافعة خصلةً من شعرها إلى الوراء، ثمِلةً بوجهها الجديد!

كان أطول يوم في حياتي.

حين انتهينا من العمل، قادت السيارة، وعرضتْ عليَّ أن تأخذني في جولة. قالت لي بأنها لم تعرف إلى أي حدّ كانت هي حزينة في الماضي، إلّا حينما نظرت إليّ ورأتْني اليوم، هناك، أحتلُّ مكتبها في الزاوية!

- هل كنتُ هكذا دائما؟! سألتْني.

لم أُجب، فعلَّقتْ: ستظلين حساسة دائمًا بحيث لا يمكن أن تجرحي أحدًا. ولكني أسمح الآن لك بأن تقولي ما تريدين!

لم أقل شيئًا.

- إذا أردتِ أن تحافظي على اسمك، فلا مانع لديّ، في الحقيقة، لا مانع لديه، فقد قال لي أمس: ما رأيك أن نتركها تحتفظ باسمها. فقلتُ له: كما تريد! لا أُخفيْكِ بأنني طمعتُ بالحصول على اسمكِ أيضًا، إنه مختلف؟!

- تستطيعين فعْل ما تريدين، ولكن أمر اسمي ليس كأمر وجهي. حين تأخذينه، لن يتبقّى منكِ شيء، ستنتهين، لأنني سأكون كل شيء فيكِ؟!

لم تقل شيئًا بعد ذلك، بقيتْ صامتة، تفكِّر، إلى أن وصلنا بوابة البناية. أوقفتِ السيارة، ترجّلتْ منها تاركةً محرِّكها يعمل. ومضتْ نحو بوابة البناية بخطى واسعة.

كانت زوجة الحارس تخرج في تلك اللحظة، فأوشكتْ أن تصطدم بها: آسفة يا مدام. سمعتُها تقول. لكن دُنْيا واصلت طريقها باندفاعها المزهوِّ نفسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الكراج، ركنتُ السيارة في مكانها المعتاد، ترجّلتُ منها، نظرتُ إلى الأرض، كانت آثار المطاط المحترق واضحة، بل هيئ إليَّ أنني شممتُ الرائحة أيضًا.

تلفَّتُّ حولي غير قادرة على تحديد خطوتي التالية؛ هل عليَّ أن أمضي إلى شقتي الآن، أم إلى غيرها وقد أصبحتُ شخصًا آخر؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

مثل كلِّ البشر، كنتُ مستعدة لقبول حياتي الجديدة، وبخاصة بعد أن أعلنتْ لي دُنْيا ندمَها، وبدتِ الحياة لروحي محتملة، لأن هذه الحياة تحمل اسمي، ربما.

مَن منّا تحمل اسم الأخرى، أنا أم الحياة؟!

كلّ شيء كان يمكن أن يمضي إلى نهايته، بهدوء، فكما قال أحد الكتاب (الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمكن أن يعتاد أيّ شيء!)، ولولا أن دُنْيا ظلّت تشاركني المكتب نفسه، وتسكن البناية نفسها، لنسيتُ أمر وجهي القديم؛ لكن شيئًا ما، كبيرًا، كان يخفّف من وطءِ عذابي، هو قدرتي على أن أقول له: لا. وكما لو أن هذه الكلمة انتصبتْ حائطًا عاليًا بيني وبينه، لم يعد يظهر، كما لم يعد مزعجًا في أي شيء.

كنت أدرك أن ذلك لن يستمر إلى الأبد. لأنه لن يسامحني لسببين كبيرين: لقد فضَّلتُ عليه ذات يوم ذلك الإنسان الطيب، أما الثاني فإنني ورغم ضعفي، مقارنة بقوته، استطعتُ أن أرفضه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن مشاكل وجهي تؤثِّر في العمل، منذ اتّخذتُ ذلك الرّكن القصيَّ المعتم: طاولة دُنْيا، مكانًا لي. كان يمكن أن تؤثر لو أنني مضيفة طيران، لكن تلك المهنة المُعلّقة بأجنحة الغيب لم تكن تستهويني أصلًا؛ ولو كنتُ أريدها لقبلتُ، في الماضي، العروض المتكررة التي كانوا يحملونها إليّ بين فترة وأخرى، وبخاصة في الحفلات السنوية لذكرى تأسيس الشركة.

كانت الجملة الوحيدة التي تتكرّر على مسامعي، ولم تكن تطربني في الحقيقة: مثل هذا الجمال مكانه السماء، لا الأرض!

كنت أبتسم واستأذن مُحدِّثي لأنسلَّ بعيدًا، فأجد مُتحدِّثًا آخر لا يعرف من كلام الغزل سوى تلك الجملة التي خلّفتُها ورائي!

اكتفيتُ بالأرض، بذلك الرّكن، وتلك الشّقة الواطئة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأتُ أعتاد النظر إلى وجهي في المرآة، وبين فترة وأخرى أصبحت أتفقّده باستمرار، كما لو أنني أنتظر أن تختفي البثور فجأة، وكذلك الشَّعر، كما ظهرت فجأة! لكنني، لسبب لا أدركه، لم أسعَ لتغيير ما أنا عليه.

دُنْيا، التي مضت بـ (جمالي) إلى أفق أعلى بكثير، لفرط حرصها عليه واحتفائها به، دُنْيا التي غدتْ الأكثر انطلاقًا، كانت الأجرأ في فتح الموضوع معي، حين نصحتني باستخدام كريمات لتخفيف حدّة اللون الأسود للشَّعر، وأخرى لإخفاء البثور.

تأملتها وهي تتحدث، وهمستُ لنفسي: أي مفارقة هذه، حين يتقدَّم القاتل بلائحة توصيات إلى القتيل تضمن له العودة للحياة؟! وأضفتُ: لعلها، أيضًا، تخشى عودة وجهها القديم إليها وتريدني أن أعتني لها به باعتباره أمانة عندي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نجحتْ اقتراحاتها كثيرًا، لا لشيء، إلّا لأنها كانت قد جرَّبتها. أخذ الشعر الأسود يميل إلى الصُّفرة يومًا بعد يوم، بحيث بدا بلون وجهي، ولم يكن باستطاعة أحد أن يلحظه في ركنيَ القصيّ ذي الإضاءة الخفيفة. هناك، كنت أجلس خلف شاشة الكمبيوتر، أخفض الضوء الجانبي ما استطعت، وأعمل.

دُنْيا قالت لي: أما آن لهذا الضوء أن يسطع! فأحسستُ بها تقلِّد خطيبًا يونانيا أو زعيما كاذبا ابتلع ضوء الشمس نفسه!

وكما لو أنني ولدتُ على تلك الصورة، فوجئتُ بنفسي أقول لها: حين يحبني أحد! أنا التي بتُّ فجأة، أقع في الحب خمس مرات على الأقل أسبوعيًّا، مثلما كانت تفعل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بسرعة شديدة راحتْ الأيام تمرُّ، وذات يوم سألتها أمام دهشة الجميع: ألم تكن تلك الطاولة التي تجلسين عليها طاولتي؟ فمتى ستعيدينها لي؟!

لم تُجب، كما يقال. وكنت على ثقة من أن الزملاء الآخرين كانوا مجرد كومبارس، لا يهشّون ولا ينشّون ولا يحزنون ولا يبشّون!

نهضتْ، وسارتْ نحوي، انحنتْ عليَّ وقبَّلت رأسي، ثم عادت إلى مزاولة عملها بالحيوية نفسها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشيء الغريب، أن شقة الدّور الأخير، التي بقيتُ أحسّ أنني طردتُ منها، بطريقة أو بأخرى، لم تعد تعني شيئًا، حتى لروح طريدةٍ، مُلقاة بعنف في ذلك الجحيم!

بعد أيام سألتُ دُنْيا، محاولةً استدراجها لمعرفة المزيد عن علاقتها بقاسم: هل أنت مستريحة هناك؟

- أين؟!

- في الطابق الأخير.

- قليلا ما أكون هناك، لأنني أعيش في شقة أخرى!

- أي شقة؟

- أي شقة؟! لا أعرف! لم أسأل نفسي هذا السؤال من قبل!

- كيف لا تعرفين؟

- صدّقيني لا أعرف! وأخذت تبكي.

- وكيف تسير علاقتك به؟!

- لا أعرف، رأيته مرة واحدة، ثم اختفى. أحسّه في الليل أحيانا ينسلّ إلى سريري، أو أجد نفسي في سريره دون أن أعرف كيف انتقلتُ إلى هناك، وحينما يُفرغ رغبته، أعثر على نفسي في المكان الذي كنتُ فيه!

- أتريدين أن تقولي لي إنك لم ترَي وجهَه؟!

- ربما تخيّلته أكثر مما رأيته، فأنا لم أحاول دفعه باتجاهي أكثر، إنه معذَّب بفقدان ابنه، هذا ما أحّسه؛ ولم يعرف بعد، هل هو الذي قتله في تلك الرحلة البريّة، بامتحانه له، أم قطاع الطرُّق في ذلك اليوم البعيد! أحيانا يقول إنه كان يريد معرفة مدى حبّ ابنه له، وإذا ما كان سيعترف بالمكان الذي كانوا يخيّمون فيه، وأحيانا يقول: كنت أريد أن أتأكّد من صلابته، ومن قدرته على تحمّل المسؤولية. وحين يغضب أحس بثورته تزلزل كل شيء، وحين أحسّ بوحدته، أعرف أنه لا يريد لأحد أن يراه؛ ربما لأنه خجِلٌ من نفسه ومما فعله!

- هل تريدين أن تقولي لي إن وضعنا أفضل من وضعه؟!

- ربما! لا أنتِ ولا أنا يمكن أن نحسم أمرًا كهذا.

حيّرني أمرُ عدم يقينها، هي التي لا يفوتها شيء، هي التي تحوّلت إلى شعلة لا تنطفئ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذات يوم، وقبل دخولنا المكتب، فوجئتُ بها تمسكني من كتفي؛ طلبتْ مني أن أنظر إليها، نظرتُ، فلم أر غيري؛ وعندها قالت تلك الجملة التي لم أتوقعها: رغم كلّ ما حدث بينكما، أنا على يقين بأنه لم يزل يحبّك، وحينما أسمعه يقول دُنْيا، أدرك أنه يقصد حياة!

- تقولين هذا وكأنكِ لا تحبينه!

- أنا! أنا لا أقول شيئا، أتريدين أن تكوني السبب في قتْلي؟! صرختْ بغضب، وتركتْني مكاني حائرة، ودخلت؛ ومرَّ اليوم كلّه، دون أن تنظر إليَّ، ولو مرّة واحدة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5

فكَّرت بالابتعاد، بالرحيل، لكني كنت أعرف أن ذلك مستحيل. يمكن أن أبتعد، نعم، ولكن كيف يمكن لي أن أختفي؟ ففي النهاية ستعرف دُنْيا مكاني ما دمنا نعمل تحت سقف واحد.

لا أُنكر أن شيئًا ما كان يُريحني، وهو أنني لم أعد أراه، دون أن أنفي حسًّا عميقًا ظلّ يسكنني، بأنني إذا ما قُدِّر لي أن أستعيد وجهي الذي سُرق مني، فسأستعيده في المكان الذي فقدته فيه، لا في مكان آخر.

هل كانت تلك الخاطرة التي عبرت قلبي كنسمة السّبب في عودة شقائي؟ لا أعرف. ففي تلك الليلة، وجدتُ رسالة، دُفعتْ من تحت بابي، وفيها العبارة القديمة تلك : تذكَّري، لم توجدي لسواي!

بعنف راح قلبي ينبض، وضعتُ يدي على صدري يملأني الخوف، وبدأتُ أدعو نفسي بصوت هامس أن أهدأ.

أخذتُ نفَسًا عميقًا، وقلت: قد تكون الرسالة الجديدة هي الرسالة القديمة، ولكنها لسبب ما سقطت مني. مضيت خائفة نحو المكان الذي أخفيتها فيه، وبمجرد أن فتحت الدُّرْج، وأبعدتُ ملابسي، وجدتُ القديمة في مكانها.

فتحتُها بخوف، وقارنت بينها وبين الرسالة الجديدة، كانت صورة دقيقة عنها، ولم يمض زمن طويل قبل وصول الثالثة.

ما أثار استغرابي أنني لم أستطع إحراقها، حاولتُ، وفشلت فشلا ذريعًا، كما لو أنّ هذه الرسائل ما كُتِبَتْ إلّا لتبقى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استحالة النوم أصبحت عذابي الليلي، إلى أن وجدتُ نفسي ذات ليلة، أمضي لرسائله الثلاث، أُخرجها، وأكتب بخط كبير فوق كلّ واحدة منها عبارة: (وهذا لن يكون!)، وأدفعها من تحت بابي إلى الخارج.

كأن حجرًا ثقيلا رُفع عن صدري، إذ بدأتُ أحسّ من جديد بقوّتي، وتذكرتُ أنني المرأة التي قالت له: لا.

تلك الليلة نمتُ كما لم أنم من قبل، وحين فتحتُ الباب صباحًا، كان أول شيء عليّ أن أفعله هو النظر إلى خارج العتبة، وكم فرحتُ أن رسائله اختفت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الكراج، وجدتُ دُنْيا تبكي، وحين سألتها عن سبب بكائها، بكتْ أكثر!

أخذتْ مقعدها إلى جانبي، فأدرتُ المحرّك وقدتُ السيارة بهدوء. بحيث أنني لم أطلب منها تثبيت حزام الأمان!

بعد أن غادرنا الكراج قالت لي: لقد سقطتْ زوجة الحارس في بئر المصعد وماتتْ!

- متى؟

- ليلة أمس، في الحادية عشرة ربما، لقد اتصلتُ بكِ لأعلمكِ، لكن هاتفك كان مغلقًا، فنزلتُ الدّرج وقرعتُ الباب دون جدوى!

- نمتُ باكرًا ليلة أمس!

- زوجها اكتشف الجثة حينما تأخَّرتْ، ذهبَ للبحث عنها، وحين استدعى المصعد، كانت جثة زوجته هناك ، وقد دمرت سقفه.

- ومن أيّ طابق سقطت.

- من الطابق الأخير، جاءت تحمل في يدها ثلاثة مغلّفات، يهيأ لي أنها رسائل، طرقتِ الباب، بابنا! فتحتُ، وقالتْ لي: أظن أن هذه للسيد قاسم. فشكرتها. وفاتني أن أسألها من أينَ أحضرتْها؟ أو مَن أتى بها؟

- وهل أعطيتِها له!

- طرقتُ بابه، فقال لي، مرّري الرسائل من تحت الباب! وعندها أدركتُ أنه يعرف بأمرها، أو أنه ينتظرها، ما دام يعرف أنني أطرق الباب من أجل رسائل؟!

- وماذا حدث بعد ذلك؟!

- سمعتُ صياح الحارس، وعرفت أن زوجته سقطتْ في بئر المصعد الذي وصلتْ به، فلسبب ما نزلتْ غرفةُ المصعد إلى الأسفل، دون أن يُغلقَ بابه في الطابق الأخير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم أعد أستخدم المصعد أبدًا، رغم يقيني أن الموت يمكن أن يخلع أبواب أرواحنا عبر ألف طريقة أخرى، أندرها بالطبع الوقوع في بئر مصعد.

لكن تلك الميتة القاسية، كانت أشبه بطلقة أصابتني، واستقرَّتْ عميقا في جسدي، دون أن يجرؤ أيّ جرّاح على انتزاعها بسبب قربها الشديد من القلب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

6

مرّة أخرى وجدتُ نفسي أتبعه، تمامًا كما حدث معي حين قادني إلى حدائق الحسين. لكنه هذه المرّة كان ينتظرني في بداية الشارع، بحيث لم يكن هناك أيّ مجال للوصول إلى البناية.

كنتُ عائدة من العمل وبجانبي دُنْيا، فوجئْنا به، ولعلّي لم أخشَ شيئًا، قبل أن أُبصر بعينيّ ذلك الرّعب الذي أنشب مخالبه في كلّ عضو من أعضائها.

اتّسعتْ عيناها، جحظتا، كأنهما على وشك القفز من محجريهما؛ تشبثتْ يدها بي، غاصتْ أظافرها الطويلة في لحم ذراعي، وبدأتْ ترتجف.

قلت لها: اهدئي. أرجوك إهـ ...

وقبل أن أُنهي جملتي، رأيتُها تفتح باب السيارة وتنطلق مبتعدة.

بسرعة امتدّتْ يدي، أغلقتُ البابَ وأقفلتُ الأبواب الأخرى. وحين رفعتُ رأسي رأيت دُنْيا تركض نحو البناية مثل مجنونة.

حدَّقتُ، حيث من المفترض أن يكون هناك، في المقعد الأول؛ كان من الصّعب عليّ أن أراه، كان زجاج سيارته الأسود لا يمنحني أكثر من ظلٍّ متموِّج.

بهدوء رأيته يتحرّك، وبهدوء وجدتُ نفسي أتبعه.

إلى أي مكان سيمضي بي هذه المرّة؟! تساءلت.

استدار نحو شارع مكة، وعندما وصل إلى دوَّار الكيلو، كانت أزمة المرور على أشدِّها. أدركتُ أنه سيختار النّفق مبتعدًا عن شارع المدينة المنوّرة. بمجرد أن خرجنا منه، فوجئنا بأزمة أكبر أمامنا، كنت أعرف أن شارع الرَّابية، المتقاطع مع شارع مكة أمامنا، سيكون غارقًا في سيل العربات، وهكذا قطعنا المسافة من مخرج النّفق إلى التقاطع بسرعة سلحفاة.

كان يعرف أنه لن يضيّعني، كما كنت أعرف أنني لن أضيّعه.

نظرتُ إلى شارة الوقود في لوحة سيارتي وتمنيتُ أن يفرغ الخزان فجأة، بحيث أتحرّر منه؛ لكن المؤشر كان فوق المنتصف. تمنيتُ أن تصدمني سيارة، أو أن أصدم سيارة، وفكرتُ في ذلك، بل وضغطتُ على دواسة البنزين بكل ما لدي من قوّة، ولم تتحرّك السيارة! جأرت مثل ديناصور، وأطلقت سحابة دامية من دخان بلون الغروب الذي كان خلفي.

في نهاية شارع مكة انعطف باتجاه شارع وادي صقرة، حاذى المستشفى الاستشاري ثم انعطف يمينًا.

أدركتُ أنه سيختار أحد طريقين، إما أن ينعطف باتجاه الدوّار الثالث، أو أن يستمر نحو قاع المدينة.

واصل طريقه نحو قاع المدينة، ولكنني تذكَّرت أنه قد ينعطف صعودًا نحو جبل اللويبدة، حين رأيت مدارس سمير الرّفاعي.

لم يفعل.

ودون أن أدري وجدتُ نفسي أنظر إلى الأعلى، إلى حيث توجد تلك البناية الرائعة المطلّة على نصف عمان، البناية التي تمنيتُ أن يكون لي شقة فيها، بعيدا عن شقّتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الزحام يتزايد كلّما تقدّمنا أكثر. ودون أن أنظر، كنت أعرف أن البنك العربي قد أصبح على يساري، كما أصبح مبنى شرطة العاصمة على يميني. مررنا عبر سوق الخضار، بعد توقُّف طويل أمام إشارتي مرور، ثم استدار لليسار باتجاه المدرج الروماني. وقبل أن يصله، أدركتُ أنه يبحث عن مكان يوقف فيه سيارته، فأبطأتُ من سرعة سيارتي.

أخيرًا توقّف، فتوقّفتُ، وقد أدركتُ أنه يريد مكانًا قابلًا لاستيعاب سيارتين!

ترجّل من السّيارة، فتلكأتُ قليلًا، ثم تبعتُه.

وقف فوق مصطبة الدّرجات الهابطة نحو بوابات المدرّج الروماني، وألقى نظرة واسعة على أولئك العابرين والجالسين فوق مقاعد الحديقة الصغيرة المواجهة لأبواب المدرج.

كل شيء كان هادئًا.

.. ورأيته ينظر نحو رجل أنيق يقرأ صحيفة تحت عمود نور، ويتّجه إليه؛ وقبل أن يصله، رفع الرّجل رأسه ونظر إليه نظرة طويلة، وبصمت أشدّ حدّق الرجل في وجهي. كنت على بعد عشرة أمتار منه، بحيث كان باستطاعتي أن أرى أنه كان مستغرقًا بقراءة جريدة (الحياة). كوّر الجريدة بسرعة وألقى بها فوق المقعد، ثم انتصب كواحد من الأعمدة الحجرية الموجودة في المكان، تبادلا النظرات مرة أخرى، ورأيتُ قاسم يهزّ رأسه، كما لو أنه يعطيه الإشارة، ورأيتُ قارئ الجريدة، وقد غدا شخصًا آخر لا يشبه نفسه، يتوجّه نحوي بخطى ثابتة.

كانت المسافة التي تفصلني عنه تتضاءل، وفي لحظة خاطفة رأيته يُشْهر خنجرًا ويندفع صوبي.

أدركتُ أنني سأموت. في الوقت الذي بقي فيه ساكن الطابق الأخير مكانه ثابتًا وهو يرى قارئ الجريدة يتّجه إليه، يتجاوزه، مندفعًا نحوي.

قبل أن يصلني النّصل، وقد تصلَّبتُ غير قادرة على فعل أي شيء، رأيت قارئ الجريدة يهوي أمامي كحجر مرتطمًا بالأرض!

بعض المتواجدين على المقاعد رأوا الرّجل يسقط، فهبّوا من فورهم؛ وحين رأى رجال الشرطة المتواجدون في الكشك الواقع على طرف الحديقة تلك الفوضى التي اندلعتْ، خرجوا راكضين.

كنت لمّا أزل في مكاني يملأني الرّعب، وقارئ الجريدة على بعد متر واحد لا غير من قدمَيّ ملقىً!

انحنى رجل وتحسّس رقبة قارئ الجريدة، ثم نظر إليّ: كان يمكن أن يقتلكِ. وأضاف آخر: معجزة!

وسألني أحد رجال الشرطة: هل تعرفينه؟!

هززتُ رأسي كما لو أنني أقول: لا.

- هل ستتقدّمين بشكوى؟!

- شكوى! ضد من؟ قال رجل يتأمّل الجثة.

- وهل سيحكمون عليه بالإعدام؟! جاء صوت من مكان ما.

لكن أحدًا لم يضحك.

تركتُهم ومشيتْ.

تلفتُّ حولي باحثةً عن ساكن الطابق الأخير، لم أره. همستُ لنفسي: ما الذي يريد أن يقوله لي وهو يأتي بي إلى هنا؟! هل يريدني أن أدرك أن باستطاعته قتلي في أي مكان؟!

هل اتّفق مع قارئ الجريدة وأحضرني إليه فريسةً جاهزة؟

لكن ما أصابني بالذُّعر أكثر من احتمال موتي، هو موت قارئ الجريدة.

كيف حدث ذلك؟! سألتُ، ولم أعثر على جواب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بمجرد أن وجدتُ نفسي في سيارتي، بدأتُ ارتجف، أرتجف بأثر رجعيّ، شددتُ قبضتَيَّ على المقود، وبقيت أشدُّ إلى أن تصلّبتا.

بصعوبة استطعتُ فكّ أصابعي من حوله.

أدرتُ المحرّك وابتعدت.

حين وصلتُ شقّتي، وفتحتُ الباب، وجدتُ رسالة قد دُفعت من تحته؛ أغلقته بإحكام وتناولتها؛ فتحتُها فقرأتُ فيها: (أخبئ لك ميتةً أفضل!)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7

سأقتله..

قلت في نفسي: سأقتله قبل أن يقتلَني.

لكنني كنتُ بحاجة لتدبير جريمة كاملة. واحدٌ مثله لا يمكن أن يَقضي في جريمة عادية!

كنت أعرف القليل عن الجريمة شبه الكاملة، من الأفلام البوليسية بالطبع؛ أعرف عن تلك الأخطاء التي يرتكبها القاتل في لحظة تخلّيه عن كماله، بحيث يجد نفسه أخيرًا في القيود مثل أيّ مجرم غبي.

لن يكون الغباء هو السبب في وقوعي، بل التردّد! فقد سمحتْ ليَ الظروف مرّتين بأن أقتله! وفي لحظة خاطفة، خاطفة كمرور سكين عبر نسمة، أحسستُ للحظة بأنني بحاجة إليه!

شتمتُ نفسي وأوشكتُ أن ألكُمَ صورتي في المرآة، لكني استعضتُ عن ذلك بأن غادرتُ الشّقة وخرجتُ إلى الشارع؛ وهناك، رحتُ بقدميّ أسحق ظلّي الذي كان يحاول الفرار دون جدوى، وحين أحسستُ بأنه على وشك الإفلات انحنيتُ وانقضضتُ عليه بأصابع يدَيَّ، أنهشه، وأمزقه، وأنثره دون رحمة.

أخيرًا هدأتُ.

تلفتُّ حولي، كنت أتوقّع أن يكون الناس قد تجمهروا لمشاهدة تلك المجنونة وهي تنقضُّ على ظلّها في وسط الشارع، لكن ذلك، لحسن الحظ، لم يحدث؛ وتلك واحدة من فضائل الطّرق المغلقة.

لملمتُ نفسي ونهضتُ، وحين رأيتُ ظلّي ينهض، حين رأيتُه يتبعني، وجَّهتُ إليه تلك الرّكلة القاتلة التي أطارته بعيدًا بحيث ارتطم بالجدار المحاذي للشارع، التصق به لحظات قبل أن يسقط بجانبه مثل حفنة من رماد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم أنم تلك الليلة، بقيتُ ساهرة حتى الصباح، وكي لا أسمح لظلّي بمشاركتي الغرفة أبدًا، قمتُ بإشعال كلِّ الأضواء الموجودة فيها.

أكنتُ خائفة من ظلّي؟! ربما، فبعد أن رأيت قارئ الجريدة يُشهر السكين، لم أعد واثقة من شيء، لعله قادر أيضًا على عقد صفقةٍ مع ظلّي!

هذه هي الجريمة الأكمل!

في الصباح كنتُ أقلّ غضبًا، لأنني استطعتُ إعادة ترتيب أفكاري من جديد، وشحذ همّتي: أسوأ ما يمكن أن يحدث لكِ، قلتُ لنفسي، أن تتحوّلي إلى فريسةٍ سهلة له، يفعل بكِ ما يشاء، ويمسخكِ كما يشاء، ويغزل لك بمغزل الشرِّ نهاية لا يمكن تخيّلها.

كان يمكن أن يكون وصولي إلى هذه النتيجة، حافزًا إضافيًّا لقتله، لكني فوجئتُ بقراري المختلف: لن أقتله، لأنني لا يمكن أن أكون مثله!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8

تقدَّمتُ بطلب إجازة، فوافقوا فورًا.

في مساء اليوم الأول، غادرتُ الشقّة، ودون أن أعرف السبب أوقفتُ السيارة قرب سوبر ماركت ضخم؛ تجوَّلتُ فيه، باحثةً عن شيء ما، لا أعرفه، ولذا لم أجده! حين وصلتُ لموظف الصندوق سألته: أين تضعون السجائر؟!

- السجائر هنا، عندي، أيّ نوع تريدين؟!

- أيّ نوع عندك!

امتدَّت يده وناولني علبةً: ما رأيك بهذه؟!

- أريد ثلاث عُلب!

ناولني إياها، فناولته ورقة نقدية من فئة العشرين دينارًا، وابتعدتُ، وأنا مشغولةٌ بالتفكير فيما فعلته.

سمعتُ صوت موظف الصندوق يصيح: بقيَّة نقودكِ يا آنسة.

أدركتُ أنني المقصودة، عدتُ، تناولتُ النقود منه، وخطوت عدّة خطوات مبتعدةً، توقّفتُ، استدرتُ، ثم عدتُ إليه: وما أدراكَ أنني آنسة؟! صرختُ في وجهه، فاستدارتِ العيونُ نحوي.

تلعثم، لم يعرف ماذا يقول.

خرجتُ، وأنا أشتم دُنْيا وأشتم ساكن الطابق الأخير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد السجائر العشر الأولى أحسستُ برأسي يدور، أنهيتُ العلبة الأولى والثانية! وحين امتدّت يدي لتفتح العلبة الثالثة، لم أكن قادرة على التّحكّم بأصابعي، أفلتتِ العلبةُ؛ وكلما حاولت الوصول إليها، اكتشفتُ بأنها تبتعد أكثر. حاولتُ النهوض للّحاق بها وقد رأيتها تتّجه نحو الباب! فلم أعثر على قدمَيَّ. أدركتُ أن شيئًا ما يحدث لي، زحفتُ نحو غرفة النوم، تسلّقتُ السرير الذي بدا أكثر ارتفاعًا من قمة إفريست، وغبتُ عن الوعي!

صحوتُ بعد ظهر اليوم التالي، كانت رائحة السجائر تملأ الغرفة، وهيئ لي أن العتمة سببها سحبُ الدّخان.

ما الذي يحدث لي؟

كنت ضعيفة، فتساءلتُ: أين ذلك السّخط الذي يسكنني، ويحوّلني، بين حين وآخر، إلى درع فولاذيٍّ لا يمكن اختراقه؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان أول شيء فعلته هو إلقاء نفسي في المرآة.

طويلا وقفتُ أمامها ، بحيث بدا لي أنني لن أستطيع انتزاع صورتي منها، مثل أيّ سيارة تجد عجلاتها منغرسَة في وحْل ثقيل.

البثورُ التي تغطي وجهي، بدتْ أكبر حجمًا من أيّ يوم، وأنفي الأفطس كمؤخرة سيارة فولكس فاجن- خنفسة، ارتمى في منتصف وجهي أحمرَ مثل قفا سعدان!

أما فمي، فلم أجرؤ أبدًا على فتحه، فقد كنت أعرف تمامًا ما يخبئ.

ساقاي النحيلتان كعودَي قصب لا تمرّ بهما الريح، كانتا ترتجفان. وحين كنتُ على وشك السقوط، رأيتُ صورته في المرآة خلْفي، استدرتُ وقد أفزعني أن يكون استطاع دخول الشّقة. لم أجده. وحين عدتُ إلى المرآة ثانية، وجدته يحدّق بي ويكتب، ولولا إدراكي للطريقة التي يكتبُ فيها الناس لحسبتُ أنه يرسمني.

في المرآة ظلَّ هناك واقفًا، امتدتْ يدي بعنف لتُمسِكه وتُلقي به خارجًا، لكنها في اللحظة الأخيرة تجمّدت في الهواء.

كنت سأخسرها لو أنها ارتطمت بذلك الزجاج المحايد البارد الذي لا يخطر له ما الذي يفعله بنا كلّما وقفنا أمامه.

بسرعة استدرتُ ورحتُ أغلق النوافذ بجنون.

كان يحاول أن يقول شيئًا، لكن الكلمات لم تكن قادرة على الوصول إلى شفتيه. وعندما رأيته يرفع يده ويدعوني، أغلقتُ الشبّاك الأخير فاختفى!

في الظلمة بحثتُ بيدي عن طرف سريري، لكن ذلك لم يحُلْ دون ارتطامي بحديده، كتمتُ صرخة أوشكتْ أن تنطلق منّي، وجلستُ أحدّق خائفة صوب المرآة التي شربتْها عتمةُ بئر.

شيء ما كان يجعلني على يقين من أنه سيقتلُني ما إن أُغمضَ عينَيّ.

عدتُ ونمت من جديد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مُنهكةً صحوتُ، كما لو أن كلّ ما فيَّ من طاقة قد تسرّب، ومعه تسربتْ ذاكرتي، مُسحتْ؛ وإلّا، ما الذي يجعلني أمضي، دون تفكير لتحسّس الجدران

باحثةً عن مفتاح الضوء.

ساطعًا انتشر وهج جعلني أغطي عينَيَّ بيدَي، قبل أن أعود وأبعدهما قليلًا قليلًا.

وكم أرعبني أنني لم أكن في غرفة نومي، بل هناك في غرفته!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9

غرفة كلّ ما فيها يشير إلى أنها غرفة فندق، الطاولتان الجانبيّتان، الهاتف، الكنبة الصغيرة، الطاولة الملتصقة بالرّكن، الكرسيّ الخشبيّ الذي اختفى نصفه تحتها، سجّادها النظيف، اللحاف الأبيض، الدّفتر الصغير والقلم الرّخيص فوقه، الحمّام أمام بابها، بابها الواقف كحارس في صمت الممرّ.

ولم أدر كيف كانت حقيبتي في يدي.

بحثتُ عن دُنْيا، تمنّيتُ أن أجدها هناك. لم تكن.

وحده كان في الغرفة، تقلَّب في السرير قليلًا، ثم استقرّ. في تلك اللحظة خطرت لي فكرة قتْلِه، في فرصة قد لا تتكرّر.

كان على بعد خطوتين مني لا أكثر، قطعتُ الخطوة الأولى، ونصف الثانية، لكن قدمي علِقَتْ في الهواء، لم يكن من السّهل دفْعها إلى الأمام أكثر! لم يكن من السّهل إنزالها في المكان الذي يجب أن تنزل فيه؛ استعدتُها.

ثلاثة أرباع وجهه تحت الغطاء..

وفجأة رأيتُ جفنيه يتحرّكان، وسمعته ينطق بكلمات غير مفهومة. أدركتُ أنه سيفتح عينيه بعد قليل، حاولتُ أن أتراجع، لم أستطع، فتجمدتُ مكاني.

كم مرة سأتجمّد مكاني هكذا؟!

أشرعَ عينيه، وفي تلك اللحظة سقطتُ أرضًا، كما لو أن ثقبًا أسود ابتلعني.

ولعلّه سمع ارتطامي، إذ أحسستُ بالسّرير يتحرّك، وسمعتُ صرير عضلات رقبته وهي تستدير يمينًا وشمالًا! ورأيتُ يده تتّجه إلى الطاولة الجانبية، تتناول الدّفتر الصغير والقلم.

كان من السّهل عليَّ أن أعرف أنّه يدوّن ملاحظات ما. بقيتُ في مكاني، إلى أن تأكّد لي أنه أعاد الدّفتر والقلم إلى مكانهما، وعاد للنوم.

بعد أن سمعتُ أنفاسه تنتظم، تحرَّكتُ.

حاولتُ التقدّم لأرى وجهه، أراه بوضوح ولو لمرة واحدة، إذا كان قاتلي، فإن أبسط حقوقي أن أرى وجهه بوضوح!

أخفى وجهه الغطاء.

شيء واحد كان يقلقني أيضًا، هو أن أعرف ما الذي كُتِبَ هناك في الدفتر. ولم تكن لديّ وسيلة أفضل من أن آخذ الدّفتر وأخرج؛ لكنني لم أعرف كيف

دخلتُ لأعرف كيف سأخرج! وشككتُ للحظة في حقيقة أن الأبواب صُنِعَتْ ليدخل الناس منها ويخرجون!

كانت يدي تحاول الوصول إلى الدفتر باذلة كلّ ما تبقى لديَّ من قوة، حين رأيت يده تنقضُّ مثل طائر جارح على يدي.

صرخت.

تلفتُّ حولي، وقبل أن أنهض اكتشفتُ أنني منهكةٌ كما لم أكن يومًا، نظرتُ إلى يدي، لم أرها، هل كنتُ نائمة؟ أم أنني لم أنم أبدًا؟!

حذائي كان يضغط بقوة على قدمَي، ويدي اليسرى تتشبث بحقيبتي كما لو أنّ لصًّا يحاول انتزاعها مني!

ما الذي يحدث لي؟! سألتُ.

ولم يكن لديَّ أدنى يقين كي أجيب.

بمشقّة استطعت الوقوف.

تحسستُ طريقي إلى أن وصلتُ إلى مفتاح الضوء، رفعتُ يدي ونظرتُ إلى ساعتي، كانت عقاربها على وشك بلوغ الثامنة والنصف.

وكم حيّرني أن النوافذ كانت مُغلقة كلّها.

حين مررتُ بالمرآة، أشحتُ بوجهي عنها، كنت على يقين من أنني إذا ما نظرتُ إليها، فلن أرى صورتي فيها، وبدا لي ذلك أمرًا مفزعًا أكثر بكثير من أن أنظر وأرى صورتي!

على وشك أن ألقي بنفسي إلى السرير ثانية كنتُ، حين لمحتُ تلك الورقة البيضاء.

لم أتذكّر أنني وضعتُ ورقة بيضاء مثلها هنا.

بوجل امتدّت يدي إليها. كانت الورقة مطويّة بعناية، فتحتُها، ففوجئتُ بشعار مستشفى شهير في أعلاها، ووجدتُ اسميَ فيها، وأن هناك موعدًا محددًا لي لمقابلة الطبيب لإجراء اللازم؟!

لم أُدرك ما هو ذلك اللازم.

لم أكن قد جننتُ تمامًا لأبحث في ذاكرتي عن زيارة قمتُ بها لمستشفى أو طبيب! لكنني بحثتُ! ولم أجد؛ فقلتُ: ها أنت تخسرين عقلكِ أيضًا، ماذا تبقّى لكِ يا...!

لسبب ما، كنت أخاف أن أنطق اسمي، فقد كان يُذكّرني بأنني في المكان الذي أنا فيه، ولم يكن يغويني أكثر من أن أكون هناك، هناك الذي ما إن أصله حتى أتمنى أن أكون في مكان أبعدَ!

هل يمكن أن يكون هو مدبِّر هذه المكيدة؟!

فكّرت، وكدتُ أتجاوز الجنون إلى ما بعده، حين خطر لي أن ما أراه ليس سوى تلك الورقة التي رأيته يقوم ويسطِّر فيها بعض الكلمات، في تلك الغرفة.

كان موعد الذهاب إلى المستشفى قد حُدِّد بعد يومين.

قبل أن أختار ما بين الذهاب وتمزيق الورقة، كنتُ قد قررتُ الذهاب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10

كان مجرد حديثي مع رجل، أيّ رجل، قد أصبح يربكني، بل مجرّد حديثي مع أيِّ شخص! تعلّمتُ الوحدة، أدمنتُها، وكرهتُها في الوقت نفسه. كلّ مدمن يكره إدمانه، يكره عبوديته، يكره استسلامه وضعفه، يكره طأطأته الذّليلة أمام حاجته القاتلة لذلك الشيء، أيًّا كان: سيجارة أو حقنة أو حُبًّا يائسًا، أو توْقًا للعثور على إنسان!

لكنني لم أكره الرجال أبدًا، لا لم أكرههم، كنت أحبُّهم، لسبب واحد لا غير، هو أن أجد رجُلي بينهم، منذ أن همستْ لي دُنْيا ذات يوم همستَها الخائفة المعتادة: كلّ ما يلزمك الآن هو رجل!

ولم أعترض، لأنني كنتُ مضطرة أن أنسى ما جرى لأنَس.

كل الفرص الواعدة بلقاء رجل جاءت في الليل، ومحاها النهار.

قبل أسبوعين ارتكبتُ الخطأ الأكبر: مجموعة من زملاء المهنة قرّروا الذهاب إلى مقهى ومطعم جَفْرَا، وسط البلد، وأصروا علىَّ أن أذهب.

كلّ واحد من زملائي الرّجال كان يمكن أن يفعل المستحيل كي يجد لي عريسا بنفسه، لكن أحدًا منهم لم يفكر لحظة في أنه يصلح لي كعريس أو صديق!

دُنْيا مالتْ نحوي: لن نكون وحدنا!

وقبل أن أستفسر عما تعنيه، قالت لي: هناك شاب لطيف سيأتي.

أدركتُ ما ترمي إليه، فقلتُ لها: إذا كان الأمر هكذا، فلن آتي!

- لا تفضحيني، تكلّمي بصوت منخفض، قالت وهي تتلفّت حولها، وأضافت: إلّا إذا كنتِ تفكّرين بقاسم كما يفكر فيكِ!

- أنا أفكِّر فيه؟!

- صدّقيني، إذا أتيتِ، ويجب أن تأتي، فلن تخسري شيئًا إلّا تشاؤمَكِ! فعلَّقتُ: بل لن أكسب إلّا المزيد من التشاؤم.

- لا أظن أنك ستتشاءمين أكثر مما أنتِ عليه الآن!

هكذا ببساطة أقنعتْني!

لسبب غامض خطرت لي فكرة أن دُنيا، تريد أن يكون قاسم لها، ولم يكن لديّ مانع لأن أمهّد لها الطريق إلى ذلك. وحين فكّرتُ في نفسيَ أيضًا قلت:

ما الذي يمكن أن يُقلق القتيل؟ قَتْلٌ آخر؟ وهل يضيرُ الشّاة سلْخها بعد ذبحها؟!

ذهبتُ.

لم أفهم لماذا زجّوني في الزّاوية البعيدة!

قلت: لعلّهم يريدون ضمانَ عدم تسلّلي بعيدًا عنهم بعد نصف ساعة من بدء السّهرة. لكنهم لم يعرفوا، أنني، ولسبب لا أعرفه أيضًا، قررتُ البقاء معهم إلى أن ينتهوا.

كان هناك، أمامي، كرسيّ فارغ، نظرتُ إليه وأنا أتوقّع كلّ شيء؛ وللحظات، تمنيتُ لو أنني أجلس عليه مقابل نفسي! ذلك ليس سهلًا بالطبع، ليس سهلًا أن تُمضي سهرة مع صورتك؛ لكن ذلك كان أقلّ قسوة من أن يجلس شخص ما، ولعله يكون ذلك الضّيف اللطيف الذي سيُمضي السّهرة محاولًا الابتعاد بنظره عنكِ! وإذا لم يحدث هذا، فإنه سيُطلق، قبل أن ينظر إليكِ، سحابة من دخان سيجارته، تحجُبك، قبل أن يقول جملة قصيرة لا تعني شيئًا، وهو يدّعي أنه ينظر إليك بصورة طبيعية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رأيته قبل أن يروه، أنا المشغولة دائمًا بكل الوجوه، على أمل العثور على وجه أقبح من وجهي! بهذا فقط، كانت معنوياتي ترتفع! أعرف أن الأمر غير إنساني، ولكن الأمر أكثر تعقيدًا من أن أشرحه.

لقد كنتُ أشتري حاجياتي من أقبح صاحب بقّالة، وأُسوّي شَعري عند أضخم مصففة شَعر، وأستمتع بمديحها لجمالي، وأصدّقه! كما اعتدتُ، أن أذهب في الأسبوع مرتين، لأشرب عصيرًا من صاحب كشك عصائر بعين واحدة ورأس أصلع وقامة مُصاغة بفوضى، مثل قامة ذلك المخلوق في فيلم فرانكشتاين!

الحلم الذي ظلَّ يراودني هو أن أعثر يومًا ما على رجل أعمى، إلى أن حدَّثتني دُنْيا ذات يوم، أن العُمْي، قد يرون بأصابعهم أكثر مما نرى بأعيننا!

ولكي تبالغ في تعذيبي، حدّثتني عن فيلم عطر امرأة، والقدرة التي تحلّى بها آل باتشينو - ذلك الجنرال الأعمى! وكيف كان ينتقي النساء ويعرف أعمارهن من مجرد تحسّسه لجلد مرافِقهنَّ. وحدّثتني عن فيلم اسمه الدّليل، عن مصوِّر أعمى يقود سيارةً بسرعة جنونية، تُلقي الشرطة عليه القبض؛ وحين تسأله المحقّقة: لماذا فعلتَ ذلك، ألا تعرف بأنكَ أعمى؟! يردّ عليها ببرود: لقد نسيتُ! وحدّثتني عن طيار أعمى قطع المحيط الأطلسي بطائرته، وعن شابين فلسطينيين كفيفين استطاعا اختراق كمبيوترات وزارة الدفاع الإسرائيلية!

صرتُ أخشى العميان أكثر مما أخشى المُبصرين.

قلت: لقد رأيته قبل أن يروه، وكما تمنيتُ، كان الأعمى المثالي الذي أحتاج، ولو لليلة واحدة على الأقل. ولو لساعات من ليل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لو كنتُ شاعرة لكتبت ديوانًا كاملًا أسميته: (مديح العتمة).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توقّفتْ ضحكاتُ الزميلات والزّملاء فجأة، حين وصل ذلك الشاب اللطيف. وكما خططوا، وجدتُ نفسي أجلس أمامه مباشرة.

بانحناءة صغيرة طيبة حيّاني، ومدَّ يده وصافحني، ثم تبادل نظرات سريعة مع دُنْيا، وبدا راضيًا! وهذا ما لم أفهمه!

تلك الليلة أحسستُ بأنني أتصرّف على راحتي، كما لو أنني غادرت القفص، ضحكتُ حتى سالت دموعي، كان الشاب اللطيف منجم نكات، ولم أكن في تلك اللحظات بحاجة لشيء سوى لخروجي من ذكريات ليلتي السابقة:

بخيلة بعثت ابنها يشتري 4 أرغفة، لمّا رجع، قالت له رجِّع واحد.. أبوك مات!

...

محشش بيحكي مع حاله :ضفدع بالصّحن؟ لأ أرنب بالسَّطل. لا، لا أكيد تمساح بالبانيو! أحسن إشي أتَّصِل بالدكتور.

- ألو دكتور، شو اسم المرض اللي عندي؟

الدكتور: هاي عاشر مرّة بتسألني... معك سرطان بالحوض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تذكرتُ تلك الورقة وموعدي مع المستشفى.

انكمشت ابتسامتي، لاحظ ذلك.

بعد عشر دقائق كان الجميع قد تحوّلوا إلى مجموعة، وتحوّلتُ أنا وإياه إلى مجموعة أخرى.

بدأ الأمر بحديثه عن فيلم (أفاتار)، سألني: هل رأيتِه؟ فأجبت: لا! وبطريقة فاجأتني قال لي: سأدعوكِ إليه غدًا، وراح يتحدّث عن الفيلم بحماسة شديدة حتى لم يُبقِ لي من شيء أراه في تلك القاعة، إذا ما قبِلتُ دعوته!

لكني أدركتُ بعد قليل أن الفيلم لا يهمّني، بل المكان الذي يُعرض فيه؛ مكان مظلم آخر يمكن أن يجمعني بهذا الشاب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دون مقدِّمات، قال لي: المشكلة الوحيدة في أفاتار، هي مشكلة كلّ الأفلام الأمريكية، فالمُنقذ للشّعوب لا يمكن إلّا أن يكون أمريكيّا، كما هو حال المُدمِّر للشّعوب أيضًا، وقد بالغوا هذه المرّة إلى ذلك الحدّ الذي جعلوا فيه أمريكيا مشلولًا يُنقذ ذلك الكوكب السّاحر وأهله!

أحد الزملاء التقط الجملة الأخيرة، بدا أنه يتابع ما نقول، فتمنيتُ ألا يكون قد سمعه وهو يدعوني إلى السينما! لوهلة ارتبكت، لأنني لم أتذكَّر إن كنت وافقتُ على تلبية دعوته أم بقيتُ صامتة؟! أم أنه أدرك أنها راقتْني إلى ذلك الحدّ الذي لم أكن بحاجة معه إلى أن أقول: يسعدني ذلك؟!

الزميل قال: عليك أن تتذكَّر أن أيّ شخص في ذلك الشعب البدائي، ما كان باستطاعته أن يقف أمام طائرات وجرافات وأسلحة الأمريكان الفتّاكة تلك!

وافقه الشاب اللطيف على رأيه، ولكنه أضاف: ولكنه أيضًا أمريكي.

ثم اتّفقا أخيرًا على أن الفيلم مرافعة رائعة للدفاع عن البيئة بشكل خاص.

فأضاف الشاب اللطيف: ومرافعة أخرى للدفاع عن الجمال والحب، نمط آخر من الجمال، وقبل ذلك وبعده، أن ترى فيه سينما لم ترها من قبْل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين هبطنا الدّرجات القليلة لمقهى جَفْرَا في الحادية عشرة ليلًا، سألني: لم تقولي لي، هل أنتِ مستعدّة لحضور الفيلم؟

كنتُ أريد أن أقول: موافقة. لكن كلمة أخرى وضِعَتْ على لساني، كلمة تشبه كلماتي التي أردِّدها عادة:لا. لا شكرًا! ورحتُ أبتعد كما لو أن عاصفة تدفعُني. قاومتُ ابتعادي، لكن جسدي لم يستجب لروحي!

لم يكن الشاب اللطيف قابلا للاستسلام بسهولة، لحقني، امتدتْ يده وأمسكتْ بيدي بلطف شديد، وجرَّني إلى داخل المحَلِّ الذي يبيع نسخ الأفلام المقرصنة، المحلّ الواقع تمامًا تحت مقهى جَفْرَا.

في تلك اللحظة أحسستُ بأن هناك أمرًا ما يُعَدُّ لي، وأنني أُدْفَعُ، قصدًا، إلى ذلك الحيّز الذي سيحرمني من كلِّ الضحكات التي ضحكتها تلك الليلة! كنت أعرف أن كلّ شيء سيتبخّر تحت الضوء، قاومتُ، لكن ذلك لم يكن يُجدي، كان هنالك من يُمسكُ بي، ولا أراه، إضافة إلى الشاب اللطيف، ويحرصُ على أن أقف عارية الوجه تمامًا تحت أضواء النيون القويّة!

التفتُّ خلْفي، وقد أحسستُ فجأة بوجود ساكن الطابق الأخير هناك، فوجدته يُنهي تدوين شيء ما في دفتره الصغير، وإلى جانبه دُنْيا!

عند ذلك، أدركتُ أن أمري قد حُسِم تمامًا، وأنني لا أستطيع أن أفعل أيّ شيء.

دخل الشاب اللطيف محلّ بيع الأفلام، دون أن يترك يدي، وقبل أن يقول شيئًا رحَّبَ به صاحب المحل: أهلا دكتور!

فتساءلتُ: دكتور؟! لم يقولوا لي إنه دكتور!

قال: سامي، أريد أفضل نسخة دي في دي من فيلم أفاتار.

- حاضر.

وانحنى سامي وتناول نسخة وناوله إياها.

- دي في دي 100٪؟ سأله الذي أصبح دكتورًا فجأة!

- 100٪، ردَّ سامي!

كنت أعرف أن كلَّ شيء سينتهي بعد قليل، كلّ شيء، فلم يكن عليه سوى أن يستدير.

واستدار!

توقَّفتْ يده في الهواء وهو ينظر إليَّ، لكنه تدارك الأمر، وقال بارتباك: أرجو أن يُعجبكِ الفيلم. ولم يكن قد تبقّى من أيِّ أثر لحيويَّته! مثل ضوء انطفأ فجأة. مثل فانوس كُسِر!

تناولتُ الفيلم من يده، وخرجتُ بصمت. وحين قال لي تلك الجملة، التي أحسستُ بأنه لم يكن يعنيها أبدًا: متى أراكِ؟! كان أفضل ما يتمنّاه بالتأكيد هو أن لا يسمع مني شيئًا!

لكن ما حدث بعد ذلك لم يكن في الحسبان!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11

سألتني السكرتيرة عمّا إذا كنتُ قد حدّدتُ موعدًا لزيارة المستشفى قبل أن آتي. هززتُ رأسي، غير قادرة على أن أجيب بوضوح!

سألتني عن اسمي، فهمستُ به، وكم بدا لي غريبًا، كأنه لم يجاور جسدي أو يسكنه أبدًا!

امتدحتِ السكرتيرةُ دقّتي، وشَكَتْ كثيرًا من الناس الذين لا يأتون في الموعد المحدّد، ولا يكفّون عن التذمُّر.

نظرتُ حولي، كانت هنالك خمس نساء ورجلان، تصفَّحتُ وجوههم باحثة عن أيّ علامة تشير إلى أنهم جاؤوا بالطّريقة التي أتيتُ بها، لم أصل إلى شيء!

بعد خمس دقائق فُتِح البابُ، وكم كانتْ دهشتي عظيمة، حينما هيّئ لي أنني رأيتُ ساكن الطابق الأخير خارجًا من غرفة الطبيب، وقد أخفى وجهه!

ما إن ابتعدتْ خطاه حتى رأيتني أقفز إلى طاولة السكرتيرة لأهمس لها برعب: مَن الشّخص الذي غادر الآن؟!

بطريقة مِهنية قالت لي: أُعذريني، من الصعب أن نُعطي أيّ معلومات عن أسماء من يأتون إلى هنا!

همستُ لها: تقولين من يأتون إلى هنا، ولم تقولي المرضى!

- لا فرق، كلُّ من يأتي إلينا سرّه في بئر. وسارعتْ يدها لالتقاط منديل ورقيّ، وقبل أن تعطس بقوّة، تراجعتُ للوراء برعب، كما لو أنني على يقين من أنها مصابة بأنفلونزا الخنازير، هي الأقرب ما تكون إلى طائر لقْلَق!

لم أحبّ وصفي لها، ولم أفخر به!

عندما عدتُ لمكاني، حابسةً أنفاسي ما استطعتُ، لاحظتُ أن أنفها أشبه بحبة كرز خمريّة اللون.

نظرتُ إلى مَن حولي، لم يكن يعنيهم أبدًا أمر العطسة، لكن أنفها دفعني للبحثِ في وجوههم عن سبب قدومهم للمستشفى.

بعد خمس دقائق رنَّ جرس الهاتف فوق طاولتها، فالتفتتْ إليَّ وقالت: غرفة العمليات جاهزة! تفضّلي.

تلفتُّ حولي باحثة عن المرأة التي يمكن أن تقصدها بكلامها، لكن أيًّا من النّسوة الموجودات لم تتحرّك، كنَّ منشغلات تمامًا بتصفّح أو قراءة مجلات

قديمة من تلك التي تتجمّع أخيرًا في عيادات الأطباء: سيدتي، زهرة الخليج، ليالينا، JO.

- غرفة العمليات جاهزة، تفضّلي! قالتْ لي وهي تحدِّق مباشرة في وجهي.

- أنا؟! سألتها باستغراب.

- أنتِ طبعًا! تفضّلي. ونهضتْ عن كرسيّها، وسارتْ، تدعوني للّحاق بها.

تبعتُها.

أشرعتْ ليَ الباب، اقتربتْ مني، وهمستْ: لا تخافي، نصف ساعة على الأكثر، وينتهي كلُّ شيء!

دخلتُ، فتبعتْني. وكم أثار استغرابي أن الباب الذي فتحتْه كان يُفضي لبهو نظيف مضاء بصورةٍ جيّدة، وعلى جانبيه عدّة عيادات لأطباء ذوي اختصاصات متعدّدة.

بعد خطوات، سبقتْني وأشرعتْ لي بابًا، وطلبتْ مني بلطف أن أدخل، بحيث نسيتُ تمامًا أنها قد تكون مصابة بأنفلونزا الخنازير، تلك السكرتيرة التي تشبه طائر لقْلَق!

الطبيب نهض من خلف الطاولة، صافحني، ثم طلب مني الجلوس.

- يقولون إن هناك منخفضًا جويًّا سيصلُ هذا المساء؟ هل هناك ما يشير إلى ذلك في الخارج؟!

- لم أنتبه، لم أنتبه للأسف، قلتُ له.

- بالُكِ مشغول إذًا، لكن ليس هناك مجال للقلَق، سنبدأ بمعالجة المشكلة الكبيرة، ثم ننتقل إلى المشكلة الصغيرة!

- ماذا تعني؟!

- سنبدأ بالغُدَّة الدّهنيّة! وبعدها سنجد حلًّا لمشكلة البثور الصغيرة في الوجه.

فوجئتُ بحديثه عن غدّة دهنية، وقبل أن أسأله: أية غدّة؟! نهض وسبقني. دخل غرفة العمليات الصغيرة المتّصلة بعيادته، ودعاني:

- تفضّلي آنسة!

حيّرني أنني أستجبتُ بتلك البساطة، أنا التي لم تزل غير قادرة على فهْم سبب قدومي أصلًا لموعد، أنا على يقين من أنني لم أحدِّده!

بيده سوى السَّرير، وطلب مني أن أخلع قميصي وأستلقي على بطني، تردّدتُ، بسبب الخجل ربما، فهي المرّة الأولى التي أجدُ فيها جسدي عاريًا أمام رجل غريب. وحمدتُ الله أنه لم يطلب مني الاستلقاء على ظهري.

حين أصبحتُ في الوضع المثالي له، امتدَّت يده وفكَّتْ حمالةَ صدري، فأرتجف بدني كلّه.

- يداي باردتان قليلًا، أرجو المعذرة. قال لي. وبدأ بتحسُّس جسدي بيدَي مُدلِّكٍ أكثر من يدَي طبيب!

بعد أقل من عشرين ثانية صاح بفرح: أمسكنا بها. وانطلقتْ يده تتحرّك بشكل دائري.

في تلك اللحظة أصابني الفزع، وقلت: كيف تمكَّن من معرفة ذلك المكان الذي يُزعجني منذ أكثر من شهرين؟!

- أنا على يقين من أنه ليس أكثر من غُدّة. وسألني: هل تتألمين حينما أضغط عليه؟ فأجبته: لا أحسّ سوى بالألم الذي يسببه ضغط أصابعكَ على جلدي!

- وقبل هذا، هل عانيتِ من أيّ آلام في هذه المنطقة؟

- أشبه بحكّة لا غير.

- اطمئني إذًا.

ورأيت يده تمتدّ إلى طاولة جانبية، يُمسك إبرة، ينزع عنها غطاءها البلاستيكي، يفرغها من الهواء، ثم يمسك بقارورة صغيرة، يقلبها، ويغرس الإبرة فيها.

- تخدير موضعي. لا نحتاج لأكثر من هذا. وقبل أن أقول شيئًا، أحسستُ بالإبرة تغوص في لحمي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12

تركني في غرفة العمليات الصغيرة تلك، تحت أضواء النّيون وخرج.

سمعتُ حوارًا لم أتبيّن جوهره يدور في الغرفة المجاورة، وفجأة انطلقتْ صرخةُ امرأة.

كنت على وشك النّهوض، وقد أُصبتُ بفزع لم أعرف مثله من قبل، لكن الباب أُشرع، وظهرَ من جديد، ومن الشقِّ الصغير، رأيتُ، خطفًا، امرأة تغادر العيادة.

سألته: هل حدث شيء؟ فردّ: سوء تفاهم بسيط. امرأة مجنونة، كانت تصرُّ على الدّخول إلى غرفة العمليات، لأنها تعتقد أن العملية الجراحية يجب أن تُجرى لها، لا لكِ!

فقلت: ربما يكون ذلك صحيحًا، فأنا في الحقيقة لا أذكر أنني ذهبتُ إلى الطبيب، كما لا أذكر أن أحدًا حدّد لي موعدًا لزيارة المستشفى! كلّ ما في الأمر أنني وجدتُ تلك الورقة، فحملتها وأتيت!

- ولكنك تُعانين من هذا الوخز المستمرّ في ظهرك، أليس كذلك؟!

- هذا صحيح!

- وقد وجدتِ اسمك مدوَّنًا في دفتر السكرتيرة؟!

- هذا صحيح أيضًا!

- وقد أتيتِ إلى عيادتي بالذات، تعانين من مرض هو من اختصاصي، ولم تذهبي لأي عيادة أخرى؟!

- هذا صحيح! أجبته، ولم أكن راغبة في مواصلة الحوار، فقد كان الهواء، بصعوبة، يحاول الوصول إلى رئتي المحبوستين تحت ثقلي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- هل تحسين بشيء هنا؟ سألني.

ولم أعرف أي (هنا) يقصد. فسألته:

- أين؟!

فقال: هنا! فسألته ثانية:

- أين؟!

- هذا يعني أن المخدِّر بدأ يعمل! قال بسعادة، كما لو أنه هو من اكتشفه ويُجري عليّ اختباره الأول!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توقَّعتُ أن يكون هناك أحد يساعده، كما يحدث عادة: ممرِّضة، طبيب، أي إنسان. فسألته:

- أليس من المفترض أن يكون هناك من يساعدك؟!

ضحك:

- يساعدني في ماذا؟ هذا أمرٌ بسيط، لا يحتاج إلى أكثر من يدين اثنتين.

وسمعتُ مرور المشرَط في لحمي.

كانت تلك هي المرّة الأولى التي أسمع فيها جلدي يتمزّق، بخلاف قلبي الذي رأيته وسمعته يتمزّق مئات المرات!

وضع المشرَط في الوعاء الأبيض فوق الطاولة، وتناول مقصًّا.

- أنت صبورة؟ سألني.

- صبورة! أجبتُ. صبورة أكثر من اللازم!

- هذا أمر جيد، لأن علينا أن نعمل بهدوء ودقّة.

.. وسمعت صوت لحمي بين فكّي المقص، كان صوتًا مدويًّا إذا ما قورن بصوت مرور المشرَط.

- أريد أن أسألكِ سؤالًا؛ هل هذا ممكن؟!

- تفضّل! قلتُ، وقد غدا صوت المقصّ أعلى، وتمنّيتُ أن يكون هنالك مخدِّر للسَّمع يحجبُ صوت اقتطاع لحمي.

- هل تعرفين متى بدأتُ العمل هنا؟!

- لا، بالتأكيد لا أعرف.

- حاولي، فقط حاولي، قد تنجحين في ذلك.

وسمعت صوت لحمي.

بصوت مخنوق أجبت: منذ خمسة أعوام؟!

راح يضحك بكل ما فيه من ابتهاج، بحيث أحسستُ أن رئتيه قد ابتلعتا الكمية القليلة من الأوكسجين التي توجد في الغرفة الصغيرة.

- حاولي مرة أخرى!

- لقد حاولت.

- مرّة أخرى فقط، إن الأمر يستحقّ المحاولة، ستكتشفين هذا بعد قليل!

بربع رئتي أجبتُ: عشرة أعوام!

فعاد يضحك من جديد:

- لستُ كبيرًا إلى هذا الحدّ، أنظري إليّ لتتأكّدي، أنظري إليّ!

حرَّكت وجهي بصعوبة، كي أراه، بألم غير عادي؛ إذ أصبح الصوت يؤلمني بشدّة.

كنت على وشك الصراخ في وجهه، لكن شيئًا ما سحب لساني إلى الدّاخل. فقلت له:

- لقد استسلمتُ، قُلْ أنتَ!

- يا سيدتي، أقصد آنستي! قد تستغربين أنني أتيتُ اليوم فقط!

- اليوم فقط!

- نعم، هذا أول يوم لي في هذا المستشفى، وقد تستغربين أكثر إذا ما قلتُ لكِ، إنني لم أكن أعرف أن باستطاعتي ممارسة الطبّ قبل أن تأتي! بل لا أذكر أنني درستُ في كلية للطبِّ أصلًا!

أرعبني هذا.

- ولكن اطمئني! كلّ شيء يسير على ما يرام!

كنت على وشك القفز من السّرير، إلّا أن يده ثبَّتتني برفق غريب.

- لا يمكنكِ الخروج من هنا بجرح واسع مثل هذا، وأين؟! في الظَّهْر!

عندما حاولتُ النهوض مرّة ثانية، اكتشفتُ أنني لا أستطيع تحريك أيَّ عضو من جسدي، كانت عيناي وحدهما تدوران في محجريهما، وأذناي تلتقطان صوت اقتطاع اللحم الذي لم يصبح مألوفًا لي.

وقت طويل مرّ، وهو ما يزال يعمل، ويحكي، دون أن أفهم شيئًا مما يقول، وفي لحظات كثيرة كان يضحك، وفجأة تساءلتُ:

- ما الذي يفعله بهذا اللحم الذي يقتطِعه؟ وهيئ لي أنني سمعتُ، في تلك اللحظة، مواء قطٍّ في الغرفة!

غامَ كلّ شيء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أكثر من ساعتين، كان لما يزل يتحدّث بانطلاق، كما لو أنه يبدأ حديثه للتّو، دون أن تتوقّف يداه عن العمل وإلقاء اللحم على الأرض.

حاولتُ استجماع كلّ ما لديَّ من طاقة. كنت أريد أن أسأله:

- متى ستنتهي هذه العملية؟! لكن ما تبقى فيَّ من طاقة لم يساعدْني على أكثر من سماع صوته؛ وكم فوجئتُ أنه كان يسرد سيرة حياته، وأنه لم يزل، بعد، غارقًا في استرجاع أحداث طفولته!

قلتُ لنفسي:

- لن يبقى فيَّ لحمٌ على عظم، إذا ما واصل الكلام.

كان فَرِحًا على نحو لا يصدّق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخيرًا، ربّتَ على إليتي بلُطف، أو لعله ربّت بغير لُطف! لأنني لم أحسّ بذلك تمامًا، فالمخدر كان، لا بدّ، قد وصلها وانتشر فيها أيضًا، وقال لي:

- باستطاعتك أن تنهضي.

استدرتُ بصعوبة، فتحتُ عينيَّ.

كان هنالك شخص آخر غير الطبيب.

صرختُ: أين الطبيب؟!

- لا شيء يخيف. اطمئني.

بصعوبة عثرتُ على بعض توازني، دون أن أكفَّ عن التّرنُّح. بسرعة توجَّهت إلى ملابسي، دون أن أدري أنني أتوجّه إلى المرآة أيضًا؛ ورأيت هيكلا عظميًّا يركض، فاندفعتُ أكثر، قبل أن أدرك أنني ذلك الهيكل، صرختُ؛ كان وجهي، أعني: وجه دُنْيا، هناك فقط، أما جسمي فلم يكن قد تبقّى منه سوى الهيكل العظمي!

متعثِّرة، أرتديتُ ملابسي وأنا هاربة، توجَّهتُ إلى باب غرفة العمليات، أشرعتُه، فرأيتُ عشرات القطط تغادر غرفة الطبيب.

حين وصلتُ إلى باب البهو وجدتُ السكرتيرة تعترض طريقي.

حاولتُ الإفلات، فقالت لي:

- أريدُ توقيعكِ لا غير، فالتأمين سيغطّي كلّ شيء. اتصلتُ بالشَّركة؛ احتجَّ المسؤولون فيها قليلًا، لكنّني أقنعتُهم بأن العملية بسيطة، بل وأقلّ كلفةً من الدّواء الذي يمكن أن نصرفه لحالة مثل حالتكِ!

سألتُها: التأمين؟!

- نعم، التأمين، هل سمعتِني أقول كلمة أخرى؟! وأضافت: يبقى شيء واحد أخير، هو تحديد موعد زيارتك القادمة! لكن، اسمحي لي أن أعتذر لكِ، فأنا نفسي لا أعرف الموعد الأنسب؛ لأنني لا أعرف إن كنتُ سأبقى هنا أم أنَّ عليَّ المغادرة بعد قليل، دون رجعة! اسمحي لي أن أصمت، هنا ينتهي حديثي معك.

وأطبقتْ فمها كما لو أن أحدًا حشاه بالاسمنت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13

فوجئت بدُنْيا تقول لي صباح اليوم التالي: لقد أخبرني بأنه رآكِ!

- أين؟!

- في المستشفى. لقد فرحتُ أنكِ تجرَّأتِ! تصوَّري أنني لم أجرؤ في السّابق على إجراء مثل هذه العمليات، لأن بعض النساء ازداد وضعهن سوءًا بعد إجرائها! أعرف، شخصيًّا، امرأة أجرت العملية، وقال لها الطبيب حين اشتكتْ من تلك البقع الحمراء التي تغطي وجهها: هذا أمر مؤقّت، وستزول قريبًا. لكنَّ ما حدث أنها خلّفت ندوبًا وحروقًا دائمة شوَّهت وجهها تمامًا! هذا ما قد ينتج عن إزالة الشَّعر بالليزر!

- لم أكن هناك لإجراء عملية تجميل.

- سرُّكِ في بئر. قالتْ لي وهي تتبسم، وأضافت: لكنّني لا ألمحُ تحسُّنا! ربما لأنها الجلسة الأولى؟!

- لا، بل الجلسة الأخيرة!

- لقد قلتُ لكِ، النتائج غير مضمونة! نصيحتي: لا تستخدمي غير الدّواء الذي وصفتُه لكِ!

وصمتت.

- تعرفين، أمس لم يغادر غرفته. فقلتُ: كيف رآكِ في المستشفى مع أنه لم يغادر الغرفة؟!

- ولكنني رأيته أيضًا.

- أنا متأكدة من أنكِ صادقة، فهو بلسانه اعترف لي بالأمر؛ ولن أنسى أبدًا، وهذا ما حيرني أكثر، أنه كان فرِحًا؛ فحين خرج من الغرفة، قال لي: كان هذا اليوم أفضل يوم كتبتُ فيه!

- كتبَ ماذا؟

- كتبَ، يعني كتبَ. ألم تعرفي طبيعةَ عمله؟ إنه يعمل في كل شيء، كل شيء يمكن أن تقولي إنه من اختصاصه، ولكن أكثر ما يحبّه كما فهمتُ: الكتابة.

- وهل له كتب؟!

- ألا تعرفين ذلك؟! خلتكِ تعرفين!

- وعن أي شيء يكتب؟!

- عن كلِّ شيء.

قلتُ لها: أريد كتبه، لا بدَّ أن نسخًا منها موجودة لديكِ.

- صدِّقيني، لا توجد نسخة واحدة، فكما فهمتُ منه، رأيه أن الكتب توجد ليقرأها الناس، لا الذين كتبوها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14

عند الظهر، فاجأني الدكتور الذي سهرنا معه في مقهى جَفْرَا باتصال غير متوقّع! كان مرتبكًا، كما لو أنه طالب تمريض وجد نفسه مضطرًّا لإجراء عملية قلب مفتوح.

ولم يكن هناك بالطّبع، قلب مفتوح أكثر من قلبي.

قال لي: إنه لم يفقد الأمل في دعوتي للسينما لمشاهدة فيلم أفاتار، حتى لو كنتِ شاهدتِ نسخة الدّي في دي. وأسرَّ لي بخجل أنه ذهب وشاهده مرّة أخرى وكان يتمنّى أن أكون معه!

بسرعة قلت له، وأنا أرى دُنْيا تحدّق في وجهي: موافِقة، غدًا، في الثامنة مساء، جيد؟!

- ممتاز! نلتقي أمام باب السينما، سأكون في انتظارك.

نظرتُ إلى دُنْيا مرة أخرى، فوجدتُ وجهَها مصفرًّا. مثل قتيلة تقدّمت مني، وقالت: إياك أن تذهبي!

- وما الذي يزعجك في أن أذهب أو لا أذهب؟!

ارتبكتْ، وقالت: أرجوك!

- إذا قلتِ لي لماذا، لن أذهب.

- فقط لا تذهبي، لا أستطيع أن أُفسِّر لكِ. وعادت إلى طاولتها قرب الواجهة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تنظر إليَّ طوال ما تبقى من اليوم، بل وأحسستُ أنها لن تقبل الصعود في سيارتي.

كان الموظفون قد غادروا، ولم يبق سوى ذلك الرّجل المسؤول عن تنظيف وخدمة المكتب! خرج ووقف فوق الرّصيف، وبين لحظة وأخرى، كان يمطرنا بنظرة غاضبة.

في النهاية، كان لا بدَّ لنا من أن نغادر موقعينا خلف طاولتينا، أو خندقينا اللذين تعلوهما شاشات الكمبيوتر.

سبقتُها إلى السيارة. نظرتُ خلفي، كانت دُنْيا تتلفّتُ حولها خائفة، وبودِّها أن تعود للمكتب طالبة من رجل التنظيف أن يُغلق البابَ عليها.

بعد تردُّد كبير لحِقتْ بي، واندسّتْ في السيارة قبل أن آخذ مكاني خلف المقود.

ابتعدنا، وقبل أن نصل، طلبتْ مني أن أوقف السيارة.

كان شارع مكة مزدحمًا؛ بحثتُ عن مكان يمكن أن أقف فيه دون أن تنهال عليَّ الشتائم من كلِّ جانب، فلم أجد. قبل دوّار الكيلو انعطفتُ إلى شارع جانبي، وفي تلك القطعة الصغيرة من الأرض الحمراء التي لم تبتلعها البنايات بعد، أوقفتُ السيارة.

- أظن أنني قلتُ الكثير، أظن أنني تجاوزتُ حدودي، حين تحدّثت في أشياء يجب عليَّ ألا أتحدَّث فيها. قالت.

- اعتقدتُ أنك غضبتِ لأنني وافقتُ على الذهاب مع الدكتور إلى السينما.

- أنا لن أغضب من أمرٍ كهذا، ولكنني أخاف عليكِ؟

- مِن مَن؟

- منه، من قاسم.

- وماذا يعنيه ذهابيَ مع الدكتور أو عدمه؟!

- مخطئة، ذلك يعنيه كثيرًا!

- ولماذا؟

- لأنك تعنين له الكثير. صحيح أن المرأة آخر من تعْلَم، لكنها أوّل من تُحسّ! كما قال أحد الكتّاب.

- ولكنكِ أنتِ التي تعنين له الآن، إنك تعيشين معه! قلت لها.

- عليك أن تصدّقيني، حياة، أنسيتِ ما الذي فعله بأنَس؟

- مَن أنَس؟ سألتُها.

- أنَس الذي كان سيتزوجكِ!

- أنَس!

- أعرف أنك نسيته، أعرف هذا، لأن قاسم يريد أن تنسيه، لأنه يريد أن يعيدك إليه كما كان يخطط في البداية.

- كيف أعود إليه، وأنا لم أكن له أصلًا؟!

- إن الأمر غير ما تفكَرين تمامًا. لقد دخل قاسم اللعبة، وأصبح جزءًا منها لأنه أحبّكِ، وفجأة برز ذلك الأنَس واختطفكِ! لم تكن المسألة سهلة بالنسبة لقاسم! عليك أن تفهمي، وإلا فإنكِ ستقتلين الدكتور بيديك بذهابك إلى السينما معه!

وكما لو أنها انتبهت، نظرتْ حولها برعب، وقالت: لن أستطيع التأخُّر أكثر من هذا.

تلكأتُ قليلا، لأنني كنتُ أفكر فيما قالته، دون أن أفهم شيئًا، وإذا بها تمسك يد الباب وتفتحه: تريدين أن تتحرّكي أم أنزل هنا؟!

- أَغلقي الباب. قلتُ لها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15

أمام باب السينما في (البَرَكَة موْل) سألتُ الدكتور عن كُتب ساكن الطابق الأخير، فالتفتَ حوله بارتباك، وسألني وهو ينظر إليَّ غير مصدِّق أذنيه: هل تريدين القول إنك لم تسمعي بوجودها أبدًا؟!

- لا أعرفها، نعم لا أعرفها، وهل كان عليّ أن أعرفها؟ هل الناس كلّهم يعرفونها؟!

- اهدئي.

- تذكّري أننا جئنا إلى هنا لنشاهد الفيلم ونستمتع.

ولأنه كان يريد تغيير الموضوع بأي صورة، قال لي: هل تعرفين أنني جئت ثلاث مرات في الأيام الأولى لعرض الفيلم ولم أستطع الحصول على تذكرة؟! وأخبرني أنه، في إحدى المرّات، شاهد رئيس الوزراء خارجاً من أحد العروض.

لم تدهشني المعلومة، لأنني كنت قرأتها في الصّحف، فقلتُ له: وما الغريب في الأمر؟! هل قال لك أحد إن رؤساء الوزارات يصبحون رؤساء لها لأنهم يكرهون السينما؟!

- آسف، يبدو أنكِ ما زلتِ غاضبة، لكنني على ثقة من أن مائة وستين دقيقة في الدّاخل ستُنسيكِ غضبك.

- عليكَ أن تتمنّى هذا فعلا.

ضحكَ: لو تعرفين كم أحبّ هذا الغضب!

ابتسمتُ رغم إرادتي. كان في ملامحه شيء ما يشرح القلب.

- لا أريدك أن تغضبي ثانية، أحبّ ابتسامتك أكثر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بحر الناس أمام باب السينما بدأ يموج، فأدركتُ أن وقتَ الدّخول قد حان. بعد عشر دقائق وصلْنا البوابة. كان هنالك شابان يناولان كلَّ متفرِّج نظارة خاصة بهذا الفيلم الثلاثي الأبعاد. نظارة سميكة، ومتينة، حين نظرتُ إليها في الداخل أدركتُ أنها استُخدمتْ مئات المرات؛ زجاجها مغطى بطبقات زيتيّة من أيدي وجباه كل من استعملوها!

ثلاث محاولات تنظيف لها ذهبت هدرًا، فالتفتَ إليَّ الدكتور وقال: خذي نظارتي.

تناولتها منه وأعطيته نظارتي.

بدأ بتنظيفها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الدقائق الأولى من الفيلم كافية لأن أذهب بعيدًا بعيدًا، وحينما بدأتْ مشاهد الكوكب الذي تدور عليه أحداث الفيلم، قلت: يا لها من جنة!

مأخوذةً جلستُ أتابع، خائفة أن يفوتني شيء، وغدا العالم الخارجي بالنسبة لي مثل كابوس عشته منذ مليون عام.

نسيتُ كل شيء، وبلغة الكمبيوتر، أحسستُ أن الفيلم (يُفرمتُني) على أقلِّ من مَهْله!

أكثر ما خشيته هو أن تُضاء الأضواء فجأة ويقال لي: اِصحي. عليك أن تذهبي لشراء البوشار والكولا، فدور السينما لا تعيش على التّذاكر فقط!

لحسن الحظّ، لم يحدث ذلك.

التفتُّ إلى الدكتور، وجدته مستغرقًا تمامًا، كان أشبه بطفل يُحلّق على جناحي يمامة.

مددتُ يدي نحو يده، واعتصرتها. كنت أريد أن أقول له شكرًا، بل أن أقبّله، وليكن ما يكون!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين انتهى الفيلم، كان آخر شيء أفكّر فيه هو الخروج من الصالة، بقيتُ جالسة، لاحظ الدكتور ذلك فقال لي: إذا كنتِ مستعدة لحضور العرض التالي، فأنا مستعد.

نهضتُ بتثاقل، وأنا أفكِّر في ذلك الجمال المختلف لسكان الكوكب، هذا الجمال الذي وقعتُ أسيرة له كما وقعتْ روح بطل الفيلم الآدمي.

كنّا آخر من يغادر الصّالة.

أمام الباب وقف الشابان يستعيدان النّظارات من الجمهور، كانت لديّ رغبة ما في أن أُبقي نظارتي معي. ولم يكن هذا ممكنًا.

في الطريق إلى السّلم الكهربائي، قال لي: انتظري لحظة. انتظرتُ؛ ورأيته يتوجّه للمكتبة الكبيرة الموجودة في الطابق نفسه، وبعد قليل رأيته يدفع ثمن كتب اشتراها، وضعتْها موظفة المكتبة الصغيرة الجميلة في كيس أنيق وناولتْه إياها.

كنت قد اقتربتُ من الباب، فسمعتُها تقول له وهي تضحك: لم يسبق أن اشتراها أحد، كلّها، مرة واحدة، هل أنت متأكد؟!

- كثيرًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يقل لي ما الكتب التي اشتراها، ولم أسأله، رغم أن من الطبيعيّ أن أسأل، لكنني كنت مشغولة بأول مشهد سأراه خارج بوابة بَرَكَة مول، وهل سيكون هناك شيء واحدٌ يشبه تلك الأشياء الموجودة في كوكب (باندورا)؟!

راح كلُّ درج كهربائي يُسْلِمنا للدّرج الذي يليه؛ أدراج هابطة إلى هناك، إلى العالم السّفلي، ولم يكن سُفليًّا مثلما كان في ذلك الليل، التفتُّ إلى الأعلى وأحسستُ أنها ليست مرّتي الأولى التي أجد نفسي فيها خارج العالم الجميل.

كان ثمة انقلابٌ صيفي قد حلّ على مدى أسبوعين، بدّد الشتاء وصقيعه، بحيث وجدتُ نفسي كغيري أبعثر الخزانة باحثة عن فستان خفيف.

أصوات سيارات، أغان تملأ الفضاء، ومطربٌ يهدِّد العالم، ويَعِد كل من يُلقي وردةً على حبيبته برصاصة في رأسه! وشباب وصبايا في سيارة مكشوفة يردّدون مع المغني كلمات الأغنية بحناجرَ وهِممٍ عالية، كما لو أنهم اهتدوا فجأة لنشيدهم الوطني!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أوصلني لسيارتي. كان حريصًا على ذلك، رغم أنني توقعتُ أن يدعوني لتناول فنجان قهوة، لأن الوقت لم يكن متأخِّرًا.

فتحتُ زجاج النافذة التي بجانبي، وشكرته، فقال لي: بل أنا الذي أشكرك؛ كانت هذه المرّة هي أفضل مرّة أستمتع فيها بالفيلم!

شكرته ثانية، فأضاف: كنتُ أريد أن أدعوك لفنجان قهوة، ولكني لم أُرِدْ أن أخسر.

- تخسر ماذا؟! سألتُه باستغراب.

- أخسر موعدي معكِ غدًا! لا أظن أنني مجنون بحيث أُضحِّي بجلسة طويلة معك، مقابل جلسة سريعة، تشبه المجاملات.

شكرته، فقال لي: هذه آخر مرة تشكرينني فيها، اتفقنا؟!

- اتفقنا.

وإذا بيده تمتدّ وتناولني كيس الكتب.

- ما هذا؟

- إنها كتبه؟

- كتب مَن؟

- وبعدين؟!

أوشكتُ أن أقول له شكرًا، وقد أدركتُ أيّ كتب يعني، فوضع إصبعه قرب شفتيَّ دون أن يمسّهما: ألم نتفق؟!

هززتُ رأسي.

وكم كنتُ فرحة.

كان يمكن أن ينتهي ذلك اليوم بالصورة الرائعة التي أتمناها، لولا أنه اقترب مني وهمس بغموض أخافني: أنتِ أشجعُ مخلوق رأيته!

- ماذا تعني؟! همستُ بدوري وأنا أتلفَّتُ حولي، دون أن أعرف لماذا أفعل ذلك.

- لأنك لم تقرئي أيًّا منها حتى اليوم!

وابتعد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16

لم أعرف أي كتاب ذاك الذي كان عليّ أن أبدأ بقراءته، لم أعرف أيها الأول وأيها الأخير، قلَّبتُ الصّفحات الأولى، بحثًا عن سنة الصّدور، فوجئت بأن الطبعات الكثيرة لها لم تترك مكانًا لتاريخ الطبعة الأولى.

(غوغل)، إنه الحَلُّ، وضعتُ اسمَه وبحثتُ، فظهرتْ عناوين الكتب، مرتَّبة حسب تواريخ صدورها في مواقع كثيرة، وطبعاتها الكثيرة وترجماتها! ثم عدتُ، وبدأت بالبحث عن صوره.

لم تكن هنالك أيّ صورة له، لم يكن هناك سوى صور أغلفة كتبه.

لا يُعقل أن يكون شهيرًا إلى هذا الحدّ ولا صور شخصية له! فكّرت بمعنى لهذا، لم أجد.

سيكون ليلي طويلًا، هذا ما كنتُ متأكِّدة منه، نهضتُ وجهّزتُ غلاية قهوة كبيرة؛ لا أعرف في الأصل لماذا تكون لديّ واحدة مثلها بهذا الحجم، وعدتُ للكنبة المفضَّلة لدي، تلك التي يعلوها ضوء جانبي يضيء السّقف وينعكس ناعمًا على كلِّ ما في الصالون.

بدأتُ منفعلةً، كنت أريد أن أعرف كلَّ شيء دفعة واحدة. بعد قليل تبيّن لي أنني لن أعرف شيئًا بهذه الطريقة.

ارتشفتُ جرعة كبيرة من القهوة قضتْ على ما في الفنجان؛ كنتُ أشبه بروسيٍّ في صحراء سيبيريا يدخل مسابقة مع ظلِّه، حول أيهما يستطيع أن يشرب الفودكا بسرعة أكبر، وبكمية أكثر!

أبحرتُ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سمعتُ صياح ديك، نبّهني إلى أن النّهار يكاد يطلع، وعجبتُ من وجود ديك في هذه المنطقة، بل وشككتُ في أُذُني، قلت: لا بدَّ أن هناك ديكًا داخليًّا في كل إنسان، يصيح في الوقت المناسب، ولعلّه ذلك الشيء الغامض الذي نسميه المنبه الدّاخلي.

لم أصدر حُكمًا على الكتاب، وتذكرتُ قولًا لناقد معروف: إذا أردتَ أن تفهم كاتبًا فإن عليك أن تقرأه كلّه.

لديّ الكثير من الصَّجر الذي يمنحني مزيدًا من الوقت دائما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين صعدتْ دُنْيا إلى جانبي في الصباح، أحسستُها شقيَّة وبائسة على نحو عميق، مع أن كلَّ ما في مظهرها وحركاتها يشير إلى غير ذلك. وأحسستُ بشيء مختلف في داخلي، لا أعرف ما هو، لكنه مريحٌ وواثق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أن خرجنا من الكراج، قلتُ لها: أُنظري، جاء الربيع قبل أوانه.

- أيّ ربيع؟! سألتْني. فتبيّن لي صِدْق ظنّي في شقائها.

زهور بنفسجية كانت تغطي الأرض في حقل زيتون صغير مجاور للطريق، على نحو مثير ولافت.

سألتُ نفسي إذا ما كانت الأيام الدافئة الماضية قد خدعتِ الطبيعةَ إلى هذا الحدّ. وسألتُ دُنْيا: إذا كانت مظاهر الربيع الكاملة قد ظهرت في نهايات شباط هذا، فهل سيكون هنالك ربيع في نيسان؟!

لم تُجب، في مكان آخر كانت.

لكن الأمر شغلني، وتساءلتُ: كم مرَّة يمكن للبذرة الواحدة أن تتفتّح؟! وهل باستطاعة هذه الزّهور أن تجفّ وتنتشر بذورًا من جديد في أقلِّ من شهر لتلِد ربيعين في عام واحد؟!

شككتُ في حدوث أمر كهذا، لأن منخفضات جوية ومرتفعات، لا بدَّ، ستأتي، بحيث لا تتيح لربيع آخر أن ينهض من شبه هذا الربيع.

تبيّن لي أنني كنت أتحدّث بصوت عال، وفوجئتُ بدُنْيا تعلِّق: هل تستطيعين الجزم أنّه لا توجد بذور أخرى لم تخدعها الأيام الدافئة التي مرّت؟!

وأضافت تلك الجملة الغامضة: أنا تفتّحتُ وانتهيتُ، ألم تلحظي ذلك؟!

فتحتُ فمي لأستفسر أكثر، فوضعتْ سبابتها قرب شفتَي، مثلما فعل الدكتور أمس، تطالبني بالصمت.

صمتُّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن هناك، في ذلك اليوم، شيء يعنيني أكثر من العودة إلى البيت بسرعة، وهكذا، لم أنظر إلى السّاعة في يوم واحد كما نظرتُ إليها في ذلك اليوم، حتى أن دُنْيا اقتربتْ منّي وهمستْ: أعرف بماذا تفكرين، هناك موعد مع الدكتور، أليس كذلك؟!

تذكَّرت موعدي معه، أنا التي كنتُ أتحرّق لقراءة صفحات أخرى من الكتب بأسرع وقت ممكن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لولا أنني مَدينة لكِ بكل شيء! لما قلت لكِ ما قلتُه هذا الصباح! قالت لي وهي تُغادر العربة متّجهة نحو باب البناية. وكان يثير دهشي أنني أجدها صبحًا في الكراج، لكنها تصرُّ أن تنزل خارجه كلّما رجعنا مساءً.

بسرعة دخلتُ الكراج، ووقفتُ أمام المصعد المتوقِّف في الطابق الأرضي وانتظرته أن يتحرّك، لم يتحرّك: لا يعقل أن تصعد مشيًا إلى الطابق الأخير، وفي نهاية يوم عمل! انتظرتُ أكثر، ولم يحدث شيء.

ضغطتُ زرَّ المصعد فتحرّك للأسفل حيث أنا. دون أن أُلغي فرضية أن أجدها في داخله.

لم تكن هناك.

أول شيء فعلته في شقّتي، هو الاتصال عبر الهاتف الدّاخلي بالحارس، سألته عن رقم الشقة التي تسكن فيها دُنْيا، وكنت مُحرجة.

فردَّ بأسى: اتركيني يا مدام في حالي، يكفيني ما حدث لامرأتي! وهُيّئ لي أنه بدأ يبكي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تجرأت وصعدتُ حتى الطابق الأخير، طرقتُ الباب، طرقْته كثيرًا، لم يُجب أحد، فهبطتُ الدَّرج وطرقتُ أبواب الطابق السّادس، ثم الخامس، الرابع، الثالث، كلّها. لم يُجب أحد، وفي غمرة انهماكي وحَيرتي طرقتُ بابي فلم يُجب أحد!

لوهلة استغربتُ ذلك، لأنني أحسستُ أنني موجودة في الدّاخل؛ أو أن هذا هو الذي يجب أن يكون، وبالغتُ، فطرقتُ باب غرفة الحارس. لم يكن هناك جواب!

هل يكون حَرَّم عليهم الحديث معي؟!

كلُّ شيء ممكن.

عدتُ لبابي وفتحته ودخلتُ، وبدل أن أمضي لأتناول لقمة ما تسدّ جوعي، وجدتُ نفسي أواصل القراءة في الكتاب الأول.

بدأت الدّخول إلى عالمه أكثر فأكثر.

ولم يكن أقلّ من غريب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تذكّرتُ موعدي مع الدكتور قبل ربع ساعة تقريبًا، فأدركتُ أن ديكي الدّاخلي لم يزل بخير.

بسرعة نهضتُ، كنتُ لم أزل في ملابس العمل الرّسمية، خلعتُها، ورميتُها، فأحسستُ بها تُحلِّق طويلًا قبل أن تهبط، كل قطعة في مكان. وبسرعة ارتديتُ أول فستان صادفني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجدتُ الدكتور في انتظاري، قال لي قبل أن أجلس: خمس دقائق تأخير أمرٌ يمكن السّماح به! وبدأ يتحدّث عن دقّة المواعيد، وأهمية الالتزام بها حتى وجدتني أسأله: أنت دكتور، أم مراقب جوّي؟!

- دكتور اطمئني. حكيم عيون!

- ها أنت تقلّد المطرب محمد عبد الوهاب في فيلمه القديم (رصاصة في القلب).

- فأكدّ لي أنه فعلا دكتور عيون، وأن جدّته أصرَّت على أن يكون طبيب عيون، بحجَّة أنه الوحيد الذي يمكن أن تأتمنه على عينيها، بعد عمر طويل!

- صحيح؟!

- صحيح، لكن الأمر الغريب أن جدّتي لم تكن تعاني من أيّ مرض في عينيها، وكان نظرها كنظر زرقاء اليمامة!

- وبعدين؟!

- ذات يوم قلتُ لها: ولكن عينيك أفضل من عينَيَّ. فردّتْ بثقة: أعرف ذلك! ولكن من يستطيع أن يضمن عينيه إلى الأبد؟!

- في هذه معكِ حقّ. قلت لها.

فردَّت: شوف! أنا أحبك كثيرًا ولا أريد أن أخدعكَ. كلّ ما في الأمر أنني وقعتُ في حبّ محمد عبد الوهاب بعد وفاة جدك؟

- عبد الوهاب دفعة واحدة!

- لقد رأيتُ فيلمه، وأحببتُ أغنية حكيم عيون، هذا كلُّ ما في الأمر، وقلت لنفسي، إذا ما رزقني الله بحفيد فسأحرص على أن يكون طبيب عيون، لأن أباك كان قد أصبح ضابطًا وانتهى!

كنتُ سعيدة به، بحكايته، كما لو أنني أكتشف وجود قلبي للمرّة الأولى!

- أعجبتك القصة؟

- كثيرًا.

وبدا لي حزينًا.

قلتُ: إذا كنتَ حزنت لأنني أحببتها، فسأسحب إعجابي!

ضحك: هذا هو الشيء الوحيد الذي لا تستطيعين أن تسحبيه. وسألني: ماذا تفضِّلين: قهوة أم فيلم؟!

- قهوة.

- خيارٌ صحيح، لأن الناس في هذا المقهى بالذات (يتناولون) الفيلم بعد القهوة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أظن أن سؤالي كان مباغتًا، بل، ربما انتحاريًّا، لأنني أحسستُ بالكلمات تخرج من فمي مثل حجر كبير يُلقى في بركة صافية ويعكّرها:

- كيف غيَّرتَ رأيكَ واتصلتَ بي بعد تلك الليلة في مقهى جَفْرَا؟

- ماذا تعنين؟!

- حين رأيتَ وجهي وأنتَ تناولني شريط أفاتار، بدا لي أنكَ أُصبتَ بالرُّعب.

- أنا؟! كل ما في الأمر أنني فوجئت.

- فوجئتَ كم أنا قبيحة؟!

- بالعكس، فوجئتُ كم أنتِ جميلة. وكان يلزمني الكثير من الجرأة كي أتّصل بكِ وأدعوك إلى السينما!

- أيّ شخص يمكن أن يرثي لحالي إذا ما نظرَ إليَّ.

- تعرفين، كان هذا هو إحساسي بنفسي حين دعاني زملاؤك للسّهر معكم، وعندما رأيتُ أنهم تركوا لي كرسيًّا في الزاوية المعتمة فرحتُ. وإذا ما قلتُ لكِ إن ذلك هو السبب الحقيقيّ في إنطلاقي تلك الليلة، قد لا تصدّقين! وقد تستغربين أنني فعلتُ الكثير كي لا أُريك وجهي تحت أضواء النّيون، ولكن جمالكِ أنساني حذري تمامًا!

نظرتُ إلى وجهه مباشرة، كان جميلًا بكل المقاييس: حنطة وجهه، شعره الكثيف الناعم، نظرته الحانية وشفتاه الممتلئتان، وعنقه العريض الطويل مثل عنق مغني أوبرا على وشك التّحليق.

لم يكن يكذب، حيَّرني أنه لم يكن يكذب! كلّ خلية فيه كانت تقول الصِّدق، ولكنني واصلتُ:

- أتريد أن تقول لي بأنك لا ترى هذا الشَّعر الذي يغمر صدْغيَّ؟!

- أيَّ شَعر يا حياة؟!

- وهذه البثور؟! وأشرتُ إلى وجهي بحنق.

- أيّ بثور يا حياة؟!

وحاول أن يخفّف من حدّة توتّري: صحيح أنا طبيب عيون، ولكني لستُ أعمى!

- شيء واحد يُفسِّر ما تقوله.

- وما هو؟

- الحب، أنتَ تحبني؟!

- شوفي، صحيح أن الحبّ يستطيع أن يفعل ذلك؛ ولكنكِ جميلة، وبالمناسبة، أنا لا أحبك!

امتقع لوني بالتأكيد، وهممتُ بالنهوض، أمسكَ يدي برفق وأجلسني:

- أنظري حولك، كلُّ هؤلاء يمكن أن يقعوا في حبّك، التفتي ولو قليلا كي تعرفي إلى أيّ حدٍّ هم مستعدون للوقوع في حبك؟!

تذكَّرتُ ذلك اليوم الذي قالت لي فيه دُنْيا كلامًا كهذا، تردّدتُ. فرجاني: من أجلي أنظري.

كان هنالك أكثر من شاب يحدّقون بي.

- ولكني أحبكَ أنتَ. قلتُ له، ونهضتُ محاولة الفَرار من اعترافي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دفع الحساب، لحق بي، وسار إلى جانبي بصمت.

أمام الدّرج الكهربائي وجدتُ نفسي مرتبكة ، لا أعرف بأي قدم يمكن أن أخطو لأكون فوق الدّرجة الأولى، الدّرجة التي تهبط فتتبعها أخرى فأخرى إلى ما لا نهاية.

في منتصف الدّرج، قال لي: حياة، أرجوكِ، اسمعيني، ما نحن إلا أناس لا مرايا لهم، رسموا لنا صورَنا فصدَّقناها!

التفتُّ إليه، وتمنيتُ أن يكون مرآتي في تلك اللحظة.

- حياة، أحبكِ، هكذا ببساطة، أحبكِ، لقد انتظرتُ كثيرًا كي أقولها لامرأة. أمرٌ واحد أريده منكِ: عليك أن تتذكّري أنكِ قطعتِ في شهور قليلةٍ المسافةَ التي قطعتُها أنا وأمثالي في سنين!

لم أفهم كلامه، عاد إلى غموضه، كما لو أنني جالسة في انتظاره وهو لم يتّصل بعد!

- أيّ مسافة؟

.. ونظر إلي بودٍّ، كما لو أن نظرته هي الجواب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أشرعتُ باب سيارتي وجلستُ، فتحتُ شباكها، فانحنى، حتى أحسستُ بأنه سيقبّلني، همس لي: انتبهي لنفسك.

- أكثر مما أفعل الآن؟!

- أكثر مما تفعلين، لأنك اقتربتِ كثيرًا مما تريدين.

- وما الذي أريده؟!

- ستعرفينه بنفسك، لا أحد يستطيع أن يُساعدكِ في هذا، انتبهي فقط، لقد مررتُ بكلِّ ما مررتِ به من قبل. أرجوك انتبهي!

وابتعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17

كدتُ أنسى أمر كتبه تمامًا لفرط ما وقفتُ أمام المرآة أحدّق في وجهي، كان هنالك شيء قد تغيّر في، ولكني لم أُدرك ما هو تمامًا، وتذكَّرت أن الدكتور قال لي: لم يبق أمامكِ إلّا القليل.

حاولتُ أن أعرف ما هذا القليل، لم أعرف.

عدتُ للكتب بفرح حقيقي.

تلك الليلة أنهيتُ الكتاب الأول.

في الصباح، صاح ديكي الدّاخلي، نهضتُ، اغتسلتُ وخرجتُ. وجدتُ دُنْيا في انتظاري؛ ركبتْ إلى جانبي، طلبتُ منها أن تثبِّت الحزام، ففعلتْ.

عندما وصلنا إلى الحقل البنفسجي نظرتُ إليه بشوق، وكنتُ أريد أن أقول كلامًا ما، لكنها كانت ساهمة، ومهمومة، احترمتُ همَّها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد انتهاء الدّوام ظلّت صامتة، وقبل أن نصل البناية، قالت لي: سيقتُلني بسببك، سيقتُلني مثلما قتلَهم؛ وغادرتِ السيارةَ بسرعة، دون أن تُغلق الباب.

راقبتُها وهي تتعثّر بنفسها إلى أن وصلتْ الباب، وبدل أن أدخل الكراج رجعتُ للخلف وأخفيتُ السيارة في المنعطف الذي ينتهي به شارعنا ذو النهاية المغلقة.

نزلتُ من السيارة وانتظرتُ حدوث شيء ما، كنتُ أحسّ بأنه على وشك الحدوث. بعد قليل رأيتها تغادر باب البناية تتجاوز السنسلة الحجريّة للحقل المجاور مذعورةً وتركض بين الأشجار مبتعدة.

حاولتُ اللحاق بها، لكنها كانت قد اختفت.

عدتُ للسيارة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حيّرني ما حدث، وأوشكتُ أن أتّصل بحارس البناية لأسأله. تذكَّرتُ إجابته حين سألته في المرة السابقة؛ تراجعتُ.

اتّصلتُ بالدكتور، هكذا أصبحتُ أناديه، فقال لي: لن أراكِ قبل أن تُنهي كتابين أو ثلاثة من كتبه على الأقل، فأنا بشوق إليكِ!

- بشوق إليَّ، ولا تريد أن تراني!

- ستفهمين، وستشكرينني.

قلت سأُنهيها الليلة، وتوجَّهت للكتاب الثاني وبدأتُ بقراءته. كان من الصعب عليَّ أن أُنهي الثالث.

سمعت ديكي الدّاخلي يصيح، فنهضتُ، وتكرّر كل شيء:

وجدتُ دُنْيا تستند إلى السيارة بظهرها، كنتُ أريد أن أسألها: لماذا غادرتِ البناية وابتعدتِ في الحقل، وكيف اختفيتِ؟! لكنها كانت في أسوأ حالاتها، إلى حدّ أنني رأيتُ بعض البثور على وجهها الذي كان وجهي!

صمتُّ.

حين غادرنا الكراج، نظرتُ إليها ثانية وأنا أعرف ما الذي سأراه فوق صدغيها، وكان هناك فعلا!

سألتها: ما الذي يحدث لكِ؟!

فقالت برعب: لقد ضعتُ، وأنتِ السبب!

حاولت الاستفسار منها، فردَّت: لم يعد مهتما بإكمال كتابه الجديد!

- وليكن، ما الذي يعنيك؟!

فأعادت: طبعًا، أتوقع منكِ كلامًا كهذا، فقد نجحتِ في الخروج من كل هذا منذ البداية. ثم صاحتْ في وجهي: أنتِ السبب!

كان الحوار أشبه ما يكون بحوار مجانين أو أناس تعتعَهم السُّكر أو أطاح بعقولهم مخدِّر قويّ.

صمتُّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

18

في منتصف كتابه الثالث بدأت أجمّع صورته بشكل أوضح. أخافني ذلك التّناقض في شخصيته، إنه حاضر في كلِّ صفحة، بل في كلِّ جملة كتبها، حاضر بصيفه وشتائه وربيعه؛ لا خريف له!

حاضر بمحبته وغضبه وسخطه وجماله وقسوته، بحيث بتُّ على قناعة من أنه لن يتورّع عن فعل أيّ شي، ولم أكن بحاجة لعبقرية حتى أرى أن كلَّ الشخصيات في كتبه تُقْتَل أو تتعذب كثيرًا أو تموت؛ الذين يحبهم مثلما يحب نفسه، والذين يكرههم، الذين معه والذين ضده!

في الربع الأخير من الكتاب أشرعتُ عينَيَّ غير مصدّقة ما أقرأ، كنتُ هناك، في الكتاب، ولم يكن يلزمني الكثير من الذكاء لأدرك أنه يتحدّث عني! انتهى الكتاب دون أن أعرف ما حدث لي. وعند ذلك فهمتُ إصرار الدكتور، وتحذيره لي أن أنتبه!

خفتُ، واستعدتُ هيئته ممسكًا بدفتره الصغير مدوِّنا كلمات، كلمات لم أكن أعرف ما الذي ستفعله بي!

فجأة، انتفض جسدي، وتراجعتُ إلى الوراء خطوتين رغم إرادتي: سمعتُ صفعة فالتفتُّ، فرأيتُ الفتاة تصفع الشاب كما فعلتْ في ذلك اليوم، ثم تستدير، تفتح باب غرفتي وتخرج، تاركة الشّاب يصرخ في وجه قاسم تلك الصرخة الغريبة: أنتَ السبب!

ورأيت قارئ الجريدة يتقدَّم نحوي بخنجره، ثم يسقط ميتًا أمامي، وداهمني إحساس غريب هو أن ذلك الرجل بريء! وأن سوء حظّه في ذلك المساء حوَّله إلى ضحية!

أمسكت بكتابه الرابع، ألقيته بعيدًا، اصطدم بالحائط ثم تكوّم كحفنة من رماد أسفله!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في آخر الليل صحوتُ على صوت موج يرجُّ المكان، ولولا أنني أعرف أن هذه المدينة لا ينقصها شيء، مثلما ينقصها البحر، لظننتُ أن نافذتي تُطلّ على شاطئ صخري!

أغمضتُ عينيَّ، فعاد الصّوت من جديد: هل أكون نسيتُ التلفزيون مفتوحًا، والفيلم الذي يُعرض الآن هو تايتنك أو بُوسيدون - إله البحر؟!

أنزلتُ قدمَيّ لأبحثَ عن مصدر الصوت ففوجئتُ بهما تغوصان في الماء، فزعتُ وأنا أعمل على استردادهما بسرعة.

هل نسيتُ حنفيّة، ما، مفتوحة؟!

كان عليَّ أن أتحرّك قبل أن يصل الماء إلى ما فوق مستوى السّرير. غاصتْ قدماي في الماء من جديد!

طوفان!

توجّهتُ إلى المطبخ، كانت الحنفية مغلقة؛ توجّهت إلى الحمّام، غرفة الغسيل، لا شيء! كلّ الحنفيات مغلقة، لكن الماء كان يرتفع بتسارع غريب.

عليَّ أن أصل إلى باب الشقة وأفتحه، لتتدفّق المياه خارجًا، هذا هو الحلّ الوحيد.

كان أكثر ما يخيفني وصول الماء إلى أيّ جهاز كهربائي أو مفتاح كهرباء، سأُصعَق وأنتهي في لحظة.

عندما وصلتُ الباب المؤدّي إلى الصالون، سطع ضوء شديد أعماني، وبعد لحظة هزَّ الشُّقة صوت رعد قويٍّ لا مثيل له. أغمضتُ عيني، وسمعتُ أسناني تصطكّ؛ واستغربتُ أنني لم أمُتْ بعد. وبعد لحظة سمعتُ صوت ماء يندفع بقوة ويُغرقني، أدركتُ أنه يأتي من فوق. فتحتُ عينيّ، وبصعوبة نظرت إلى الأعلى، وهناك رأيت غيمة كبيرة تحتلّ سقف الصالون. وسمعتُ صوت الدكتور يقول لي: انتبهي فقط، لقد مررتُ بكل ما مررتِ به من قبل. أرجوكِ انتبهي.

سرتُ نحو الباب، وأنا أبحث بيدي العمياء عن المفتاح، أدرْته، وبمجرد أن لمستُ مقبضه، اندفع الماء قويًّا، لا إلى الخارج، بل إلى الداخل، فشعرتُ بجسدي يغوص عميقًا؛ ومن جديد سمعتُ صوت الدكتور يصيح بي: أرجوكِ انتبهي.

انتبهتُ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

19

أفقتُ، ولكن، ليس على صياح ديكي الدّاخلي؛ أحسستُ بأنني تحوَّلت كلّيَ إلى ديك، إلى منبه عملاق.

في الخارج كانت السّماء تمطر بشدّة، أحسستُ بهذا. تناولتُ إفطاري، ولم تكن شهيّتي مفتوحة يومًا مثلما كانت في ذلك الصباح.

في الكراج، لم أجد دُنْيا في انتظاري.

استغربتُ هذا.

ولم أعرف إن كان علي أن أنتظرها أمام الباب الخارجي، أم أواصل انتظارها في المكان الذي أنا فيه.

تأخرَّتْ، فتحتُ باب السيارة وأخذتُ مكاني خلف المقود، ولم يكن صعبًا عليَّ أن ألحظ ذلك المغلّف الكبير الموجود فوق الكرسي بجانبي. إنه ليس لي، أنا متأكدة من هذا، فتحته، وإذا برسالة! فتحتُها:

(أرجوك، أصبحتُ ضائعة، ضائعة تمامًا. حياة، لقد انتبهتُ لما يحدث، ولكنني خفتُ أن أفعل شيئًا. أنتِ التي فعلتِ كلَّ شيء، ولكن آن لك أن تنتبهي، أنتِ الوحيدة التي يمكن أن تقولي له الآن إننا بشر، ولسنا مجرد شخصيات. لقد استطعتِ أن تحبّي أنَس، هل تذكرين؟! منذ ذلك اليوم أفسدتِ لعبة قاسم! أفسدتها تمامًا؛ وها أنتِ تقعين في الحبّ من جديد ، فتجعلين الأمر أصعب. منذ أيام وهو يدمِّر كل شيء حوله. لم ينس أبدًا أنه قَبِلَ أن يكون شخصية في كتاب، لا لشيء إلا لأنه أحبّك، على أمل أن تحبيه. إنه وحيد أكثر مما يمكنك أن تتخيّلي، حياة؛ لقد ملّ الجلوس هناك، وتعِب. سترين أنه لم يكتب شيئًا حقيقيًّا بعد لقائك بأنَس، لم يكتب سوى هلوسات، كوابيس لكِ وحدكِ..

أرجوك حياة، أنقذينا، أنتِ لم تعرفي ما الذي فعله بوكيله، لو تقرئين ما كتب! أرجوكِ افعلي ما فعله الدكتور، اختاري لنا نهاية أخرى، أيّ نهاية، غير تلك التي يخبئها لكِ، لي، لنا!)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين أغلقتُ الرسالة، أدركتُ أنني لن أرى دُنْيا مرّة أخرى، لن أراها أبدًا، أدرتُ محرّك السيارة؛ فاجأني حجم الضوء القادم من باب الكراج، ضوء لم أرَ مثله من قبل. أوقفتُ السيارة أمام البناية، تأمّلتها، فوجئت بحجم الخراب الذي أصابها، ومضت عيناي تتسلّقان واجهتها حتى استقرَّتا على اسمها هناك في الأعلى، كان الحرفان الأخيران من اسمها قد سقطا، في حين يبدو ما تبقى من أحرفها مائلا وعلى وشك السّقوط.

قلت: فليهنأ وحده بهذا الخراب!

أخرجتُ هاتفي واتصلتُ بالدّكتور، قلتُ له: أنا الآن قادمة إليك.

- الآن؟!

- الآن.

- والعمل، ألن تذهبي إلى العمل اليوم؟!

- أيّ عمل؟!

- صحيح، أيّ عمل؟ وراح يضحكُ، يضحك من كلِّ قلبه.

أغلقتُ الهاتف، وحينما انطلقتُ بالسيارة، كنت ما زلتُ أسمع ضحكته وهي تعلو وتعلو، أصابتني عدواها فبدأت أضحك، لكنني توقّفت فجأة، حينما أحسستُ أن نهاية كهذه تشبه نهايات كثير من الأفلام!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الطريق إلى الدكتور، وجدتُ نفسي مشدودة بنداء غامض وغريب، أن أنعطف لإلقاء نظرة على المكتب الذي حُشَرنا فيه، لست أدري كم من السنوات!

طردتُ الفكرة، قاومتها، لكنها انتصرتْ أخيرًا.

قطعتُ مسافة لم أكن أعتقد أنها بهذا الطول، قبل أن أنعطف إلى الشارع الذي عبرناه مئات المرات.

من بعيد لاح لي مبنى صغير، أدركتُ أنه هو، دفعتُ مزيدًا من البنزين إلى أعماق المحرك، قبل أن أكبح جماحه لإدراكي أنني قد أصطدم بالمبنى، إذا ما واصلتُ اندفاعي.

أمام المكتب توقفتُ. كلُّ ما كان هناك كان يهزّني بقوة. أحسست برياح تهبُّ، وتقتلعني، مع أنها لم تكن قادرة على تحريك ذرة واحدة من الرّمل، رياح تهب عليَّ وحدي!

تراجعتُ عدة خطوات دون أن أرفع عينَيَّ عن واجهة المكتب، الواجهة الزّجاجية التي انتشرت خلفها مجسمات طائرات لم أر مثلها من قبل، وامتلأ جوفه بموظفات وموظفين، يشبهوننا تمامًا.

وتراجعتُ أكثر.

كان المبنى قابعًا هناك فوق رصيف رمليٍّ، خلفه صحراء وأمامه صحراء، وليس ثمة أبنية في ذلك العراء، سواه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إبراهيم نصر الله

مواليد عمّان، من أبويين فلسطينيين أقتلعا من أرضهما في عام 1948

* صــدر له شعرًا (الطبعات الأولى):

. الخيول على مشارف المدينة،1980. المطر في الداخل،1982. الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق، 1984. نعمان يسترد لونه، 1984. أناشيد الصباح،1984. الفتى النهر والجنرال، 1987. عواصف القلب، 1989. حطب أخضر،1991 . فضيحة الثعلب، 1993 .

الأعمال الشـعرية- مجلد يضم تسعة دواوين، 1994.

شـرفات الخريف، 1996. كتاب الموت والموتى،1997 . بسم الأم والابن، 1999. مـرايا الملائكــة، 2001. حجرة الناي، 2007.

لو أنني كنت مايسترو، 2009.أحوال الجنرال -مختارات، 2011.

عودة الياسمين إلى أهله سالما-مختارات،2011.

على خيط نور.. هنا بين ليلين، 2012.

طيب مثل قلب سحابة- مختارات، 2017. الحبّ شريرٌ، 2017.

* الروايــات: (الطبعات الأولى):

. براري الحُمّى، 1985. الأمواج البرية، 1988. عَوْ، 1990.

حارس المدينة الضائعة، 1998.

الملهاة الفلسطينية (الطبعات الأولى):

. طيور الحذر، 1996. طفل الممحاة، 2000. زيتون الشوارع. 2002، أعراس آمنة، تحت شمس الضحى، 2004.

زمن الخيول البيضاء، 2007، اللائحة القصيرة لجائزة البوكر العربية، 2009. قناديل ملك الجليل، 2012.

مجرد 2 فقط، 1992. أرواح كليمنجارو، 2015.

ثلاثية الأجراس،2019:

ظلال المفاتيح، سيرة عين، دبابة تحت شجرة عيد الميلاد.

الشــرفات: (الطبعات الأولى):

. شرفة الهذيان، 2005. شرفة رجل الثلج، .2009 شرفة العار، 2010. شرفة الهاوية، 2013. شرفة الفردوس، 2015،

حرب الكلب الثانية، 2016.

* كــتب أُخرى (الطبعات الأولى):

. هزائم المنتصرين- السينما بين حرية الإبداع ومنطق السوق، 2000.

. ديـواني - شعر أحمد حلمي عبد الباقي. إعداد وتقديم، 2002.

. السيرة الطائرة: أقل من عدو، أكثر من صديق، 2006.

. صور الوجود ـ السينما تتأمل، 2008.

. كتاب الكتابة: تلك هي الحياة.. ذاك هو اللون، 2018.

* تُرجم عدد من أعماله الروائية إلى الإنجليزية، الإيطالية، الدنمركية، التركية، الفارسية، ونشرت قصائد له بالإنجليزية، الإيطالية، الفرنسية، الألمانية، الإسبانية، السويدية...

* أقام أربعة معارض فوتوغرافية، وشارك في معرض (كتّاب يرسمون): فاروق وادي، جمال ناجي، إبراهيم نصر الله، عمان،1993 .

* نال تسع جوائز عن أعماله الشعرية والروائية، من بينها:

. الجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) 2018، عن روايته

(حرب الكلب الثانية)

. جائزة كتارا للرواية العربية، عن رواية (أرواح كليمنجارو)، 2016

. جائزة القدس للثقافة والإبداع

(الدّوْرة الأولى)، 2012، عن مجمل أعماله.

. جائزة سلـطان العـويس للشـعر العربي، 1998.

. جائزة تيسير سبول للرواية، 1994.

. جائزة عرار للشعر، 1991.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الكتاب..
المراودة
1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
اللعنة
1
2

3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
إبراهيم نصر الله
الفهرس..